

الحمد لله

بيت الشباب يعود

تجليد مسكون
صالح الدين

892.73

H128A



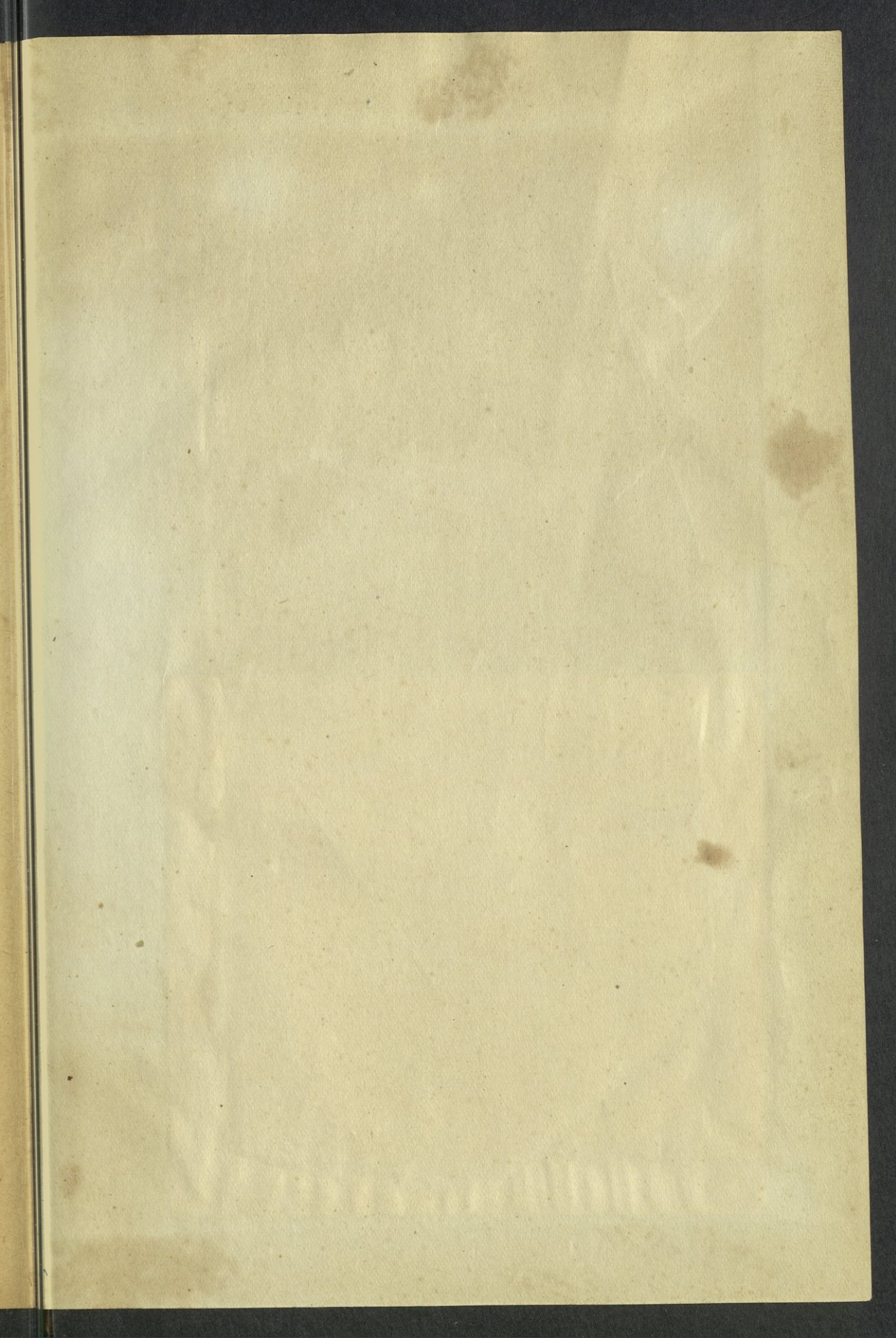
MR 24 '56

~~MR 1 '56~~

~~FEB 1 '62~~

~~13 OCT 65~~

~~1 JUN 66~~



892.78

Hdc 281824

C. 1



لَيْسَ الشَّيْءُ بِأَعْوَى
ذَاتِ تَمَانٍ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ

تَأَلَّفَ

عَلَى السَّكَّارِ

مطبعة المقطف والمقظم

١٩٥٠



تقديم

هذا الرجل المزدوج

هذا رجلٌ متمتع بعمرين في زمنين متعاقبين . وعاش بشخصيتين متناوبتين في حياتين متبادلتين . تقلب في أولاهما بين الحظوظ والخيبات الى أن قارب الكهولة . فتمنى أن يجدد الحياة لكي يصلح الغلطات فاستجيب تمنّيه . وعاد يستأنف الحياة الثانية من جديد من أول الصبي . فما كانت الحياة الثانية بأصح من الأولى ، ولا أقل منها أغلاطاً . لماذا ؟

اختبر القضاء والقدر ، والحرية والاختيار ، وحار بين الحظ والسعي ، وتردد بين الخير والشر ، وتحير بين الثواب والعقاب ، وتعلل بين الغنى والفقر ، وشهد الحرب بين إله المال وإله الخير .

وبقي في الحياتين لا يدري هل هو مسير أم مخير ، ضاع بين الجبرية والقدرية ^(١) . ناقش ونوقش فيهما فما استقرّ يقينه على الراجحة منهما .

في هذا الكتاب دراسة فلسفية في هذه المواضيع التي لا يزال البشر يتجادلون فيها منذ بدء الخليقة الى اليوم .

نقود الحمراء

الجبرية فرقة من الفرق الاسلامية قالوا لا قدرة للعبد أصلاً ، لا مؤثرة ولا كاسبة ، بل هي بمنزلة الجادات في ما يوجد منها . والقدرية هم جاحدون القدر والذين يقولون أن كل عبد خالق لفعله ، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى .

ليت الشباب يعود

الفصل الاول

الوسيط

أخذ ثمنها بلا ربح ، وعسى أن أستطيع
خدمتك بأمر آخر .

وما لبثنا أن صرنا صديقين . وفيما نحن
نتحدث بأمر لا طائل تحتها ، كأننا نقتل
الوقت تحت لواء الصداقة ، ورد على لسانه
ذكر بهيج بك رحمي ، فقلت : أتعرفه ؟

قال : اشتغلت معه برهة طويلة في دار
البريد في الاسكندرية وأعرف أمره جيداً .
فهل تعرفه ؟

قلت أعرف عقيلته السيدة ودیعة إذ
كانت تصطف مع أهلها في بلدتنا في لبنان ،
وهي سيدة فاضلة لطيفة .

قال : وبهيج بك رجل فاضل أيضاً وله
منصب كبير في مصلحة البريد . إذاً تعرف
أهل السيدة ودیعة أيضاً . وتعرف الآنسة
فريدة .

فاختلج فؤادي بين ضلوعي كأنه كان
ينفضها عنه فضغطتها عليه وقلت غاصاً :
نعم أعرفها . ألم تزل عند أختها ؟ كيف حالها
يأتري ؟

قال الراوي : —

في ذات يوم كانت لي مشكلة في دار
البريد في القاهرة . وكان الموظف نعيم
النعماني يعالج مشكلتي ، وقد توسعت فيه
الإخلاص والعدالة في حل المشكلة ، فشكرت
له أمانته وطيبة قلبه من كل عواطف . ولما
علم إنني أشتغل بتجارة الواردات السورية
طلب مني صفيحة من زيت الزيتون النقي .
وفي اليوم التالي أرسلت إليه الصفيحة حسب
العنوان الذي أعطانيه .

وما هي إلا بضعة أيام حتى فاجأني السيد
نعيم في نيوبار حيث اعتدت أن أتبعي مساءً
من عناء العمل اليومي وعاتبني قائلاً : أهكذا
يا عزيزي يوسف ترسل صفيحة الزيت
ولا ترسل معها « فاتورة » بالثمن ؟

قلت : الحمد لله إن ذنبي يقف عند هذا
الاهمال المقصود ، لأنني قدمت الصفيحة هدية ،
فأرجو ألا ترفض الهدية .

فكاد يستشيط وقال : بل أردّها غداً .
وفهمت أنه لن يقبلها هدية . فقلت إذن

قال : أنها آية في الأدب واللفظ
والذوق ، فازداد انتفاض قلبي وشعرت أن
السيد نعيماً محدثي يسمع نبضات دمي في
عروقي فقلت : والجمال أيضاً . أليست جميلة ،
أليست منزلتها في الجمال كمنزلتها في الأدب
واللفظ والذوق .

قال : متوسطة في الجمال . لا تعد آية فيه
قلت في نفسي : ليت لهذا الغي —
لا أقول ليت له عيني لكي يرى . بل ليت
له فؤادي لكي يحس بحقيقته . ثم قلت له :
إذا كانت آية في الأدب واللفظ والذوق ،
فهي آية في الجمال أيضاً . ما هو الجمال ؟
أليس هذه الخصال ؟

ففهم نعيم ما في قلبي من وجد وقال :
بلى حقيقة ، ولعلها جميلة ، لو لم تكن عليلة
قلت مضطرباً . ألم تزل عليلة . هي
عادت الى الاسكندرية لكي تكون تحت
رعاية طبيبها . أفما استطاع طبيبها أن
يشفيها ؟

فضحك النعماني وقال : ان مرضها
روحاني يا أستاذ يوسف . لا يستطيع أعظم
طبيب أن يشفيها حتى ولا طبيبها لأن داءها
جاء عن يد طبيبها
فبغت وقلت : كيف ذلك ؟

قال ان ذلك الطبيب خطبها وهي في
أحسن صحة عقلية وجسدية . وبقي يتردد
على بيت بهيج بك صهرها شهوراً ، وهم
يطالبون إليه أن يقترب منها ، وهو يسوف

لأعذار منسوجة نسج الديماج ، ولكنها
لا تستر جسماً ، فكانوا يصبرون . وفي ليلة
وضحاها انقطع الدكتور عن زيارتهم
وافتقدوه فلم يجدوه . وبحسوا عنه فقيل
لهم أنه باع ميادته ورحل الى نيويورك حيث
له أخوة هناك موفقون وهو لم يكن موفقاً
في الاسكندرية . مضى ومضت أشهر وهو
لم يكتب لهم كلمة . فانقطع أمل الفتاة وسقمت
لفشلها في الحياة .

— إذا كانت تحبه حباً جماً إذ فقدته
— لا أظن أن سبب فشلها فقد هذا
الخطيب بل فقد حبيب آخر ، فقدته بسبب
هذا الطبيب .

قلت : هذا غير معقول .
قال إلى هنا لم أعد أعرف مزيداً . وإنما
هناك رواية أخرى شبه سرية .

قلت مجفلاً : ماذا ؟
— يقال أنه تكلل عليها وفي اليوم
التالي هجرها وسافر بلا وداع . ولكنها
لا أظن أن هذه الحكاية صحيحة .

قلت : ألا تزال في الاسكندرية .
أما عادت الى أهلها في بيروت ؟
قال : لا أظنها تعود . لأن أخاها فريداً
جاء الى الاسكندرية وأسس محلاً للصياغة
وتجارة المصوغات والساعات . وأظن أن
أبويه سيتبعانه قريباً .

عدت في تلك الليلة الى منزلي أحمل على

منكبي أحمال ذكر ياتي السابقة الثقيلة .
بعد أيام معدودة كنت حسب عادي
جالساً في فيو بار . أستعرض ذكر ياتي الماضية
فأرى حلوها صراً وجميلها قائماً، وإذ فاجأني
صديقي البريدي نعيم النعماني وفي حميائه
أماثر بشر، فحيننا نحيات الأوداء الأوفياء
وقال : هل تعلم أن عقيلة بهيج بك رحى
هنا في القاهرة الآن ؟

قلت : أجل علمت أمس إذ شرفنتي
بزيارة في محل تجاري . ثم تغدينا معاً في
مطعم الحاتمي .
قال باسم : عسى أن أخبارها كانت
سارة لك .

قلت : لا بد أنك أعرف بأخبارها مني
وبينك وبين أسرته صداقة قديمة حميمة .
قال : أجل لقد عرفت منها كل شيء
بهمك ويسرك .

قلت : ما ذا عرفت ؟
قال : عرفت ما كتمته عني في اجتماعنا
السابق إذ لم يكن من داعٍ للتنويه به .
قلت : ما ذا ؟ ما هو ؟

قال : عرفت ما كان بينك وبين أسرة السيد
خليل منسى الصائغ أبي فريدة من صداقة،
وما كان بينك وبين ابنته من حب وخطوبة
فانتفض قلبي حتى شعرت أنه ينضغط
بين ضلوعي . فتجلدت وقلت : وبالطبع
عرفت كيف فسخت الخطوبة بسبب
دخول شخص ثالث بيننا هو الطبيب الذي

ذكرت لي حكايته في اجتماعنا السابق
قال : إن ما روي لي ورويته لك عن
تدخل الطبيب لم يكن صحيحاً . نعم كان
الطبيب يعد نفسه بزواج فريدة ولكنهم
لم يمنسوه بها . فلما ضاق ذرعاً رحل إلى أميركا
فضحكت وقلت : بالطبع لا يحسن
بهم أن يقولوا الآن إلا هكذا .

قال : ثق يا عزيزي يوسف انه لم يعقد
زواج الدكتور بتاتاً ، ولك أن تتحقق
ذلك من سجل الزواج . فلك أن تعتبر أن
ذلك الطبيب لم يدخل بينك وبين آل منسى
وان خطوبتك لا تزال قائمة .

قلت : أرى يا عزيزي أنك موفد من
قبل السيدة وديعة أخت فريدة لأجل وصل
ما انقطع ، فلا تؤاخذني إذا قلت لك أنك
لست أبرع منها بوصل المنقطع . لأنك
لا تعرف كيف ابتدأت صلتني بفريدة وكيف
انتهت . ولعل وديعة نفسها وأبويها
لا يعرفون أيضاً . ولو كنت تعرف فلعلك
لا تكلف نفسك عناء السعي المشكور في
هذا العمل المبرور

فقال : حقاً إني لا أعرف ولا أدري
إن كان ما روي لي كان الواقع بعينه .

قلت : إذن فلا بأس أن تسمع الحكاية
بحذافيرها لكي تعلم ان كنت تصلح قاضياً
في هذه المسألة أو وسيطاً كريماً . ليس في
الحكاية ما يجب أن يكون سرّاً مكتوماً .
عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . فاعرف .

الفصل الثاني

برعمة الحب

وشرعت أروي له حكايتي : —

في السادسة عشرة من العمر ابتدئ برعمة الحب ففتق الحنك لكي تفتح الزهرة، ولذلك كان قلبي حائماً كالنحلة على زهرات، الفتيات، لا يلبث أن يستقر على زهرة حتى يفر عنها إلى أخرى طامعاً بحلاوة أشد. وكان في جيرتنا فتاة تدعى سلمى بنت حلیم الزعفراني. وكانت أكثر اعتراضاً في سبيل حياتي من سائر فتيات الحي، فكنت أظن أنني أحبها. ولكنني كنت دائماً أشوف إلى غيرها. أما هي فكانت على الرغم من حشمتها وتصونها لا تستطيع أن تكتم حبها لي منذ تلك السنة جعل أبي يصطحبني معه إلى مصر لكي يدرّسني على تجارته. وهي تجارة الحاصلات اللبنانية والسورية من زيت وزيتون وقرالدين الخ، ويعودني السفر ومعالجة الشراء والبيع ويعرفني « بالزباين ». ولما عدنا من أول رحلة عدت مفتوناً بجمال من شاهدت في مصر من النسوة من غير تخصيص. فلم تعد فتاة من فتيات البلدة تنصباني. كنت متقدماً حباً ولكنه حبٌ بلا حبيب. أين الحبيب. لا أدري. أية من رأيت من الفتيات كنت أهواها. ولكن إذا غابت عن بصري

ذهب من قلبي هواها، وأقام فيه هوى آخر، حتى سلمى الزعفراني التي كانت أحبهن إلى قلبي لا يملك هواها يوماً واحداً في نفسي بل هو يتردد عليّ كتردد الربيع بين الفصول الأربعة.

كنت أحس أنني عصفور طائر من فنن إلى فنن، متنقل من دوحة إلى دوحة، كأن الأرض لا تسعني والجو ضاق بي والهواء يقذفني إلى السماء. كنت أراني شيئاً ممتازاً في الوجود، ولكن ما هو هذا الشيء. لا أدري. كنت أظن أن العالم مخلوق لي، لا أنا مخلوق له. لله من غرور الصبا الذي كان يتبخّر في دماغه ويتطاير منه حجاباً وخيلاً وزهواً.

في الصيف الثامن عشر من عمري كنت أشاهد كل يوم بعد يوم فوجاً من المصطافين في بلدتنا التي تعد من أجمل المصايف. وفي ذات يوم شاهدت أسرة قادمة إلى المتنزه وهي أم وابن وابنة. فلما وقع بصري على الفتاة حتى شعرت لأول مرة في حياتي بهزة في بدني كله لم أعرفها من قبل. لا أكون قائلاً مجازاً إذا قلت أنها هزة كهربائية رجّت بدني كله ووجف بها فؤادي في صدري

أو غراماً أو تدملاً أو ولماً أو شغفاً؟ إن هذا الوله يوهن قوة الإرادة، يضعف الاستقلال الشخصي، يقتل الحرية. لذلك شعرت أنني أصبحت ولا اختيار لي. رأيت أنني غدوت مقيداً بذلك المكان ومرتباً بذلك الهيكل الروحاني.

بذلت جهدي ألا أخالسها البصر مخافة نفورها. ولكن ما من مرة نظرت اليّ شزراً إلا اصطادت مني نظرة على الرغم من تعمي الاعراض تحاييداً لکنفارها ما عدنا من ذلك المتنزه إلا وقد تحدثت العيون. أعلى تفاهم أم على تجاهل؟ لا أدري أعلى تلاؤم أم على تباين! الله أعلم تتبعت ذلك الثالوث إلى أن توارى في داره حين كانت الدار نفسها تتوارى في حلك الليل.

رجعت من ذلك المعبد الذي اكتشفته مسائلاً، وكنت لا أراه قبل ذلك المساء إلا مباءة للفئران والجردان إذ كان خالياً من السكان

وعلمت ليلتئذ من أُمّي أن ذلك المنزل ملك السيد خليل منسى الصائغ الذي يشتغل بفن الصباغة في بيروت ويتاجر بالمصوغات وأن هذه الأسرة أسرته تصطف كل صيف في ذلك البيت. وأن اسم الفتاة فريدة وإسم أخيها فريد. أين كانت فريدة هذه؟ لم أرها في صيف سابقاً. لعل برعمتها لم تتفتق من زهرتها قبل ذلك الصيف

شعور لم يطرأ عليّ من قبل. فلم أفهمه، أول مرة في حياتي هفا قلبي لامرأة على هذا النحو. وقعت عيناى على عينيها فلم أستطع أن استرد بصري إلا حين حدثت بي فأغضيته، كأن في نظرتها قوة أطبقت أجفاني فأعرضت ومضيت متجاوزاً طريقها. ولكنني ما لبثت أن تفهقت كأن قوة تردني لكي أرى ما في ذلك الهيكل الانساني من حباثل ولبطيتي به، وجعلت تجذبني اليه، بقي نظري يشيع ذلك الهيكل حتى استقرّ الثلاثة في موضع حسن في المتنزه. فما رفعت قدماً إلا كانت خطوة إلى ذلك المقام على الرغم من تهبي ذلك الأفنوم. ولما اقتربت إلى المكان خفت أن تفر الطيبة من قحتي في الارتداد لمواجهتها، فحاولت أن أرجع، ولكن قديمي أصرّنا على الدنو إلى مقربة من مجلسها. فخرأت نفسي وجلست لدى ذلك الثالوث المقدس.

أجل أحسست أن ذلك الأفنوم موطن الطهارة والقداسة والنعمة. ويحي! أنظرة واحدة تهب كل عاطفة فيّ. أين كانت هذه العاطفة الغريبة كامنة؟ لم أعهد من قبل أن في الوجود ما يقلقل جسماني، ويثير وجداني، ويزلزل ما بين ضلوعي.

رأيت قبل ذلك الحين فتيات ومسيدات كثيرات وعظفت وملت وهويت. ولكن كهذا الهوى لم أحس.

ألعل هذا ما يسمونه حباً أو عشقاً

فيجعلها حباً .

هو جوهر يقترب بالحب فيلد سحراً .
وما هو الحب ؟

هو نبضة تتغفل في الجماد فتجمله
كهرباء ، وفي النبات فتجمله إحساساً ، وفي
الإنسان فتجمله شاعراً إحساساً ، وفي النفس
فتجملها خالدة . والخلود المطلق للألوهية .
والله حبة . والمحبة تربط أجزاء الكون
وتحرّكها جميعاً .

الحب يخلق الجمال ليتغذى به
الجمال وُجد . والحب وُجد . ولكن
هل وسم هذا الحب قلب فريدة . قلت
لنفسي حينئذٍ أن جواب هذا السؤال هو
شغلك الشاغل يا يوسف منذ الغد

لله من الحب . يسهل الصعاب ويذل
العقبات . فما انقضى اليوم التالي حتى صرت
وفريداً أخوها معرفتين بعد أن كنا نكرتين
الواحد للآخر . وفي اليوم الثالث صرنا
صديقين بعد أن كنا غريبين . وفي اليوم
الرابع صرنا حميمين ونحن من سنٍّ واحدة
تقريباً . وفريدة جاءت على رأس فريد بلغة
المواليد . وصرنا مجتمعاً أكثر الأمساء في
المتنزه . وصارت لي جرأة على الحديث مع
فريدة تارةً ومع أمها أخرى . وصارت
بيننا مودة ظاهرة مبطنة بشغف خفي .
وحين ينعقد الأسان تتخاطب العينان وتتفاهم
الروحان .

من تلك الليلة دب الهوى الأفلاطوني
في فؤادي . منذ ذلك المساء اعتبرت أنني
دخلت في دور جديد من الحياة الروحية ،
أو دخلت في دور جديد من العمر . منذ
ذاك استيقظت في غريزة المطامع ، وتنهت
نمرات الآمال منذ ذاك . أدركت أنني
إنسان وإن الإنسان مخلوق للجهاد ، وأن
النشاط الذي يشعر به إنما هو أداة للجهاد
في تلك الليلة تعاضمت الآمال وتجمست
الآماني . ولكن الطريق إليها لا يزال
مجهولاً . بيد أنني اكتشفت أن فريدة هي
الباب للدخول إلى رحبة الآماني .

في تلك الليلة كان طيفها ماثلاً أمام
مخيلتي واضحاً في حلك الليل ، حتى بعد أن
أغفيت كان لا يزال يخطر في مخيلتي .

أناطلب يا عزيزي مني وصفاً لذلك الأفتوم
الملائكي ؟ لا لزوم لذلك الوصف ... ليس في
الكون جمال كجمال ذلك الأفتوم في نظري ،
فإن كنت في بدء الخليقة أو في نهايتها فلا
يرسم في مخيلتي غير ذلك الجمال . هو الأول
والآخر . وإن عبرت الكون من طرفه إلى
طرفه الآخر فلا يروق لعيني غير ذلك الجمال .
إذا شئت أن ترسم جمال فريدة فانسخه
عن مخيلتي . أنظر في حدة عيني تراه
ما هو الجمال ؟

هو خيال ينطبع في جرنومة الحياة
فيجعلها روحاً .

هو شعاع ينعكس عن جوهر الروح

وكان يتردد على الأسرة في المتنزه شاب
كان في السنة الأخيرة في كلية الطب
الأميركية في بيروت . وهو كثير الدعوى
ثقيل العنجهية، مغرور بنفسه وجماله وخفة
روحه ، وروحه أثقل من رضوى . ولم
يكن يحاول الكلام إلا باللغة الانكليزية
التي كنت أجهلها أو لا أعرف منها إلا نزر
الألفاظ . ومتى كان هذا الدعوي موجوداً
معنا يحتكر الحديث مع فريدة بهذه اللغة
الأجنبية . فكان كأنه الذئب ينهش في
أحشائي، أو المفرقعات ترج أعصابي ، أو
قصف الرعود يقرع دماغي .

من ذا يقول أن الحسد رذيلة ؟ ومن
لا يقول أن الغيرة فضيلة ؟ ومن يقول أن
البغض إثم والحقد خطيئة ؟ إذا كنت
لا أعرف سعادة في الحياة إلا بمجالسة
فريدة ومغازلتها أفلا أعذر إذا مقت ذلك
الطفيلى الذي يشاغلها عني ، وحقدت عليه ؟
أفلا أبغضه وأتمنى فناءه ، إذا كانت الدنيا
تنزع بقاء ؟ — غفرانك اللهم

لما سمعت فريدة تكلم ذلك الثقيل
بالانكليزية همت في نفسي غريزة الغيرة .
اشتيت أن أعرف هذه اللغة لكي أفهم
ماذا يقولان ، ولكي أكلّم فريدة بها .
آليت على نفسي أن أعلمها ، واتفقت مع
معلم المدرسة عندنا أن يعلمنيها، وشرعت
أقضي معظم النهار في الدرس والتحصيل ،
وقد صحّ في قول القائل « الحب رباني

وعلمي الأدب » .

ما انقضى الصيف حتى تفاهنا فريدة
وأنا فيما بيننا ، تفاهاً سريعاً بأننا حبيبان .
وتفاهنا على أن نكون زوجين متى حان
الزمن المناسب وهو غير بعيد .

وعادت فريدة الى مدرستها وفريد الى
مدرسته وأنا الى مدرسة غرامي وهيامي
وصباتي في يقظتي ومناي . ولما كنت
أعرف أصول اللغة العربية معرفة كافية ،
وكنت أطلع كتب الأدب والشعر جعلت
أنظم الأشعار تشبيهاً بفريدة

اكتشفت أن الاستزاق في هذا العصر
لا يسهل إلا بقدر ما للانسان من العلم
والمعرفة ، وإن استيسار الأمور في بلادنا
لا يكون إلا بمعرفة بعض اللغات الأجنبية .
كان الله الذي ضرب علينا النذل والمسكنة
بسبب كسلنا وبلادتنا قضى بأن لا نحصل
رزقنا من بين أيدي مستعمرينا إلا إذا
خاطبناهم بلغاتهم . فما أمكننا أن نضطرهم أن
يتعلموا لغتنا، ولكنهم تمكنوا أن يضطرونا
أن نتعلم لغاتهم . لذلك عزمنا أن نستعد
لدخول الكلية الأميركية في بيروت .

أرجو ألا تكون يا عزيزي نعيم قد
مللت سماع قصتي هذه التي لا تهمك .

فقال : كلا البتة . اني مستلذ سماع هذه
القصة التي أرى فيها دروساً اجتماعية وأخلاقية ،
فاستمع الى حديثك الى النهاية

فاستطردت وقلت : في تلك السنة

في بيروت لكي أستعمل لمستزوق أحسن .
 واجتمعت بي مراراً لتقنني بأسبابها
 وتسميلي بغرامها وتستعطفني بعبراتها .
 ولكن هناك صنماً آخر كنت أعبد . وقد
 استقر في هيكل قلبي وليس في مكنة سلمى
 أن تحطمه . ولما يئست سلمى من اقتناصي
 قالت بلغة اليأس « ألا تذهب معنا لكي
 تودعنا في بيروت الوداع الأخير »
 قلت اذهب بلا شك . ولماذا تحسبينه
 الوداع الأخير ؟ من يدري ؟ فلعلنا نلتقي
 بعد حين .

والله يعلم إنني كنت أمكر عليها لكي
 أخفف من نوعها بتجديد الأمل . ولكني
 كنت أجزم جريمة بهذا التأميل لا مغفرة لها
 فأجهشت بالبكاء وقالت : « لا . لا .
 بل تشيعني في بيروت الى مقبرة الغرام » .
 وارتمت على ذراعي . فقبلتها قبله حارة .
 فانتعشت . وقالت : إذن أظننا نلتقي بعد ؟
 قلت بموهماً كاذباً : قد أهاجر الى
 أميركا .

قالت : إذن سأستقبل الشمس والقمر
 كل يوم وكل ليلة على أمل أن تكون
 قادماً معهما .

ونوارت السفينة في الأفق .
 تراءت لي سلمى صاعدة الى العلى
 لا مبارحة في البحر الخضم . وشعرت أنني
 هبطت الى الدرك الأسفل لما انقطع حبل

حدث حادثان خطيران في حياتي : الأول
 أن أبي توفي بحمي خبيثة - رحمة الله عليه -
 كان حصني وملاذي ، فتركتني في ارتباك
 وترك لي أمماً وأختاً أصغر مني . لا بل
 وضعني أمانة في يد الله تعالى . لقد فعل لنا
 أكثر من الواجب عليه . فعلمني ما استطاع
 أن يعلمني ودرّسني بقدر ما أذن له اختياره .
 وترك لنا شيئاً من الأملاك العقارية
 لا يكفيننا ريمه إلا إذا قسّرنا في المعيشة .
 ولم إذا نقسّر وقد أورثني صحة وعقلاً
 وعضلاً ؟

أما الحادث الثاني فهو أن حلیم الزعفراني
 أبا سلمى كان في الولايات المتحدة الأميركية
 من جملة المهاجرين المرتزقين ، فكتب الى
 زوجته يستقدمها إليه مع ابنته سلمى ، لأنه
 كان ناجحاً في تجارة المطاط هناك ، فصعب
 الفراق على سلمى جداً وشكت لي ألمه وقالت :
 هل يسهل عليك يا يوسف أن نفرق ؟ أما
 أنا فأذوب حسرة وأسسى . لماذا لا نعقد
 زواجنا وندع أمي تسافر وحدها الى أبي ؟
 ولم تكن سلمى تعلم ماذا كانت منزلة
 فريدة الصائغ من فؤادي . خملت على قلبي
 حملة استعطاف بدموعها حتى كادت تصهره
 شفقةً وعطفاً . فحاولت أن أعذرها
 بأني لست في ظروف تسمح لي بالزواج بعد
 أن مات أبي وتركني غير مستعد الاستعداد
 الكافي للارتزاق . ولذلك آليت على نفسي
 أن أتعلم في الكلية (الجامعة) الأميركية

الاعمال الطبية والجراحية منذ كان طالباً ،
حتى إنه كان يتدارك أغلاط أساتذته . كاد
غروره هذا يستثير زقي ، وأوشك فضوله
أن يستفزني للقدح بسخفه ، وكان يوقد نيران
غيظي ظني بأنه يضمّر مطمعاً بيد فريدة .
وكان يسمر حنقي ما يترأى لي أحياناً من
مجاملة الأسرة له . وخفت أن يستميل حبه
فريدة اليه . فجعلت نفسي تحدّثي بدراسة
الطب . ولكن هناك بضعة سنين قبل أن
أظفر بشهادة الطب ، فهل مهلني فريدة
هذه المدة .

انقضى الصيف وعدت الى الكلية
وما لبثت أن لجّعتني حادث لا تطيقه نفسي
ولا يهدأ بعده روحي وهو أن ديدة أخذت
أختها فريدة معها الى الاسكندرية لكي
تقضي شتاء عندها . فكنت في ذلك العام
في كهد وفي حصرة

وكنت قد أخذت منها عهداً بأن
تكاتبني عن يد أخيها . فكتبت لها في أول
شهر مرتين ثم مرة في كل من الشهرين
التاليين فردت علي خطاب واحد ، وبعد ذلك
لم تعد ترد بحجة اكتفائها بما تكتبه لأخيها
وتذكرني فيه . وقبل أن ينتهي العام قاطعتني
بتاتاً ولم تعد تذكرني في كتبها لأخيها على
الرغم من عتابي الرقيق لها ، واستعطاني
المتذلل في رسالة أخيرة أرسلتها اليها .

منذ ذلك الحين شعرت أن قلبها تغير
علي . وكدت أذوب غمّاً . وصبرت على

الاتصال بيننا . شعرت به هبوطاً رضى
هيكلي وسحق قلبي وأطار لي ، وأفلت
ضميري وجعل يقرعني قرعاً أعمى بصيرتي .
أما ظلمت سلمى التي أخلصت الحب قدر
ما يستطيع الانسان اخلاصاً . وهل أثق أن
تخلص فريدة هذا الاخلاص ؟ « البعد
جفاء » . بعد أسابيع تضاعف خيال سلمى في
خيلتي الى أن تلاشى — أجل تلاشى تجاه
طيف فريدة .

انتهت سنتي المدرسية بنجاح تام .
ولما طلعت أسرة الصائغ الى مصيفها
في بلدتها كماداتها كانت معها السيدة وديدة
أخت فريدة ، وعلمت أنها عقيقة صديقك
بهيج بك رحمي الموظف في مصلحة البريد
في الاسكندرية كما تعلم . وقد جاءت من
القطر المصري في ذلك الحين لكي تصطف
مع أهلها .

عدنا فنردد الى المتنزّه الممهود . وطاد
ذلك الطبيب الدخيل الى فضوله وتدخله في
أحاديثنا وأسمارنا ، كأنه لا يجد جماعة غير
جماعتنا تصبر على تطفله . وقد زاده حصوله
على شهادة الطب في تلك السنة عنجبية
وإعجاباً بنفسه . وهو لا يصبر الى أن يمتدح
الخصم سارعله بل هو يتأدى بالأطباء بمعارفه
ووصف الأمراض التي عالجها ، وفعل فيها
العجائب ، حين أنه لم يمض الشهر بعد انتهائه
من الدراسة . وإنما هو يعزو لنفسه غرائب

عن علاج طبيبها الذي درس مرضها .
وآليت على نفسي أن أستمع بالدرس
الى أن انتهي من دراسة الطب . قررت أن
أكون يوماً دكتوراً ممتازاً طائر الصيت
لكي تندم فريدة على تركي وتعود الي .
فانظر ماذا يفعل الحب . الحب كالإيمان ينقل
الجبل من مكان الى مكان .

ما انتهت السنة المدرسية حتى ضاق
صدري . علمت أن فريدة لن تأتي في ذلك
الصيف مع اختها للاصطياف . ورأيت أن
سني الدراسة التي أمضي متطاولة تكاد حياتي
تنقضي كمدأ قبل أن تمضي السنوات : حياة
شوق . وحياة وجد . وحياة جوى . وحياة
غرام بلا لقاء . وحياة لوعة بلا إبتسامة
حبية تطفئها . ثورة نفس لا تخمد . كيف
تطاق حياة كهذه . ولماذا الحياة التي لا تطاق ؟
أما من فرج لهذا الكرب ؟

كان مورد الرزق الشحيح يقذفني من
الدراسة الى العمل . لكي يقذفني من لبنان
الى مصر حيث استأنف المسترزق الذي
درّني عليه أبي . أحقيق أن الارتزاق كان
يدفعني الى مصر ، أم ان مجهم فريدة كان يجذب
مجمي اليها ؟

لا . لا . لست من الضعة بحيث أنقاد
بخيطة جاذبية وهمي الى فريدة . أذهب الى
القاهرة فأكون في طريق الربيع التي تحمل
أنفاسها . ولكني لا أكون في مرمى بصرها

هذا المصض الى أن عادت في أول الصيف
والتقينا في الصيف حسب العادة . وعاتبتهما
عتاب العاشق الخائب . فأفصحت عما في
نفسها وقالت بتطويل وتردد ما خواه : ان
هناك سبباً صحيحاً وجيهاً يضطرها أن
تنقض العهد الذي بيننا . فألححت في طلب
بيان هذا السبب الصحي . فقالت بعد تردد :
مرضت في الأسكندرية مرضاً خطراً هو
النزف ، وطال عهده ، ولم أشف الشفاء
التام حتى اليوم . ولذلك قال الطبيب ان
الزواج خطري ، فأريت ان الذمة والشرف
يوجبان علي أن لا أغشك ، لأن زواجنا
يكون وبالأعلى علينا كلينا .

فشكرت لها هذه الصراحة وقلت
أعاهدك أني أبقى بحبك وحدك الى أن
يصرح الطبيب بزوال الخطر . فاولت أن
تقنمني أن معاهدة كهذه ليست حكمة من
قبلي ، وان الأفضل أن نبقى حرين الى أن
يقرر الله تعالى أمراً حسناً لكلينا .

وخطر لي أن يكون الطبيب الذي
دخل بيننا هو ذلك الطبيب القضيولي الثقيل
على الرغم من أنها سميت لي طبيباً آخر مشهوراً
في الأسكندرية .

وانتهى الصيف وفريدة وأنا في مثل
جفاء . وعرف أهلها ما كان من صرم جبل
الحب بيننا وقطع العلاقة . وقبل أن يهجم
الشتاء عادت فريدة الى الاسكندرية ضيفة
على أختها مرة أخرى بدعوى أنها لا تستغني

لئلا تترفع بها خيلاؤها عليّ . إذن فأكون
في القاهرة . ويعرف أهلها أنني هناك . وهي
ستعرف أيضاً . ونمت نرى أي الجرمين
أقوى جذبا للآخر .

أقول لك الحق يا عزيزي نعيم . كانت
تلك مكابرة كاذبة مني . ما برحت الى مصر
إلا منقاداً بخيط حب فريدة الذي لا ينقسم
تأهبت في ذلك الصيف بشحنة من
الحاصلات لرحلة الى القاهرة حيث يكثر
زبائن أبي . وسافرت .

وعلى أثر وصولي الى القاهرة كتبت
الى فريد منسي الصائغ أبنئته برحيلي
وبعنواني بحجة الصداقة المتينة التي بيننا ،
على أمل أن يرسل عنواني لاخته عسى أن
تكتب لي . فردّ رداً موجزاً بعد حين ليبراً
من العتب . ومضى الشهر إثر الشهر وفريدة
لم تكتب . فكتبت لها اخبرها أنني في
القاهرة . فما أجابت فصحت مقاطعتها لي .
وحق ياسي وامتد أساي . وجعل جواي
يقرض أحشائي . وإذا عزّ الأمل فاذا يقوم

مقامه غير الصبر . فأنعم الله بالصبر .
ورأيت إني اذا عدت الى لبنان فقد
يقضي الغم عليّ . ورأيت في منازله القاهرة
شيئاً من التسرية عن نفسي . فآثرت أن
أبقى فيها . ولعلّ قربها من الاسكندرية
مكنني فيها . كتبت الى ابن خال لي في بلدنا
ان يتبضع البضاعة ويشحنها لي لقاء عمولة .
وأرسلت اليه المال الذي معي لهذا الغرض .
وجرت المعاملة بيننا مجرى حسناً واستقبلت
تجارتي وشرعت تتسع رويداً وأنت
منها منجأ .

وكانت نفسي تحدثني أحياناً بأن أذهب
الى الاسكندرية بزيارة لبيت بهيج بك
رحمي صهر فريدة . ولكن عزة النفس
كانت تردعني ردعاً غنياً . ولا سيما لاني
لست واثقاً أن يرحب آل رحمي بي . ولذلك
حرمت على نفسي المضي الى الاسكندرية
حتى لأي سبب آخر لئلا تظن فريدة اني
أسعى اليها .

ولعلها نبذتني فبذ النواة .

الفصل الثالث

الحبل المنقطع

هذه يا عزيزي نعيم قصة صلتني بآل خليل منسي الصائغ وبالأنسة فريدة . وعندك باقيها وهو فاجعة لي كما علمت وكما رويت لي . أفليست فاجعة ومأساة يا أخي ؟ وكان نعيم منصتاً لي كل الوقت يسمع ولا ينبس ببنت شفة الى أن قال : لماذا تحسبها مأساة وهي لم تنته بعد قلت : انتهت . وأنت علمت كيف انتهت ، وإن كنت مفوضاً بأن تنوسط فيها فأرجو منك أن تستعفي من هذه المهمة . وقد حاولت السيدة وديعة أمس أن تعيد المياه الى مجاريها ، فعادت وهي مقتنعة أن القناة التي تجري فيها المياه قد التوت ولم يعد ممكناً أن تستقيم

قال : ولكن فريدة قد اعتدلت . . . فأجبت وأنا كأدأ غص بكلامي : لم يعد لي شأن بفريدة بعد أن صدق ظني بعلاقتها مع الطبيب الفضولي وهتكت كل عاطفة في كذبت فريدة علي بمرضها . ضحكت علي باعتذارها ، مكر بي حبها . غشني لطفها . نافقت علي نظراتها . خدعتني ابتساماتها . هزى بي كحل عينيها ودعج مقلتيها . سخر مني دلالها . لعبت علي دوراً هائلاً بتكسر أجفانها ، وبلغمة لسانها ، وبحر أفعاسها وتهذاتها ، يوم قالت لي متوردة

لطالما ألمعت الى أن ذلك الطبيب الطميلي سيأخذ من لبها فكرة . فكانت تهزأ بهذه المظنة ولطالما حذرتها من يلمعية (١) ذلك الفضولي فقد تهوّر في خداعه . فكانت تبرّم من ذلك التحذير أو أنها كانت تستنكف أن تحذّر .

ها قد وقعت فيما حذرتها ، وغفلت عما نبهتها . فإذا قالت حين هجرها ذلك النذل بلّوّم ، هل خطرت لها على بال ، وتذكرت مني كل مقال : على أي حال ليس لفريدة عهد ولا وفاء . كانت تسبح حيث تطوف بها الأهواء ، لا قلب إلا كتلة لحم يتدفق فيها تيار دم منها وإليها . لادماغ إلا كتلة رمادية اللون تتعاقب عن صفحات أليافها صور الخيالات بلا تسلسل

(١) اليلمي الذي يخلط الصدق بالكذب

مدهوشاً لا يتكلم. ولعله لم يعيد يدري ماذا يتكلم
فقال : اني يا أخي أعذرك وأنت الآن
في منتهى الانفعال . خيراً لك أن تلجأ
الآن الى ملهى تموة فيه عن نفسك ، عسى
أن تنسى ذكرياتك الماضية التي كنت أنا
السبب في استذكارها . فأرجو أن
تعذرني وتؤذن لي أن أفارقك الى الغد
في مثل هذا الوقت وفي هذا المكان .

ومضى . وعدت الى منزلي وأنا أحس
غمومي مطبقة على صدري تكاد تهزق روحي
تمزقت سحب الخيالات والاهوام
وظهرت شمس ذكريات الحب الاول . انجلي
طيف سلمى الزعفراني في مخيلتي كأنها لم
تفارقني إلا اليوم . يا للحسرات . يا للغموم !
أين أنا من سلمى الآن وبينى وبينها بحر
ومحيط . فأين نبتون الله البحر يقلص
الأوقيانوس لكي يضع القاهرة ونيويورك
في صعيد واحد . انقطع حبل هذا الأمل
منذ انقطع حبل الاتصال يوم الوداع .
وكم كنت قاسياً يوم ورد لي خطاب من
سلمى فلم أجابها عليه لاني حسبت المجاوبة
خيانة في حب فريدة . لم أكن مقيداً بوعده
لسلمى وانما كنت مقيداً بمهد لفريدة .
أ كذلك يكون جزاء الاخلاص .

عالمي أبي الصدق . فأضربي الصدق .
لو كاتبت سلمى حينئذ لكان لي اليوم سبيل
الى الاتصال بها اذ تيقظ حيي القديم لها .
هل أقول تباً للإخلاص ؟

ولا ارتباط كما تتعاقب الصور المتحركة .
ولا حواس إلا أجهزة أعصاب تنقل
صور المحسوسات الى تلك الصفحات حيث
تنطمس في طبقات الخيالات بعضها فوق بعض
إذن ، أين مركز الحب في جسمانها .

أين نبضة الوجد في وجدانها .

أين هبة الهوى في مشاعرهما .

أين حرقه الجوى في أحشائها .

لا حب ولا وجد ولا هوى ولا جوى .

ليس هناك إلا شهوة مادية — تبرج

وتمويه ألوان وأزياء ونفاسة دمقس

ليس هناك إلا صنم فئيس ظاهرة
مرمر أصم . فكيف يكون قلبه .

يا لضياع ذلك الحب — حيي — الذي

كان كشعاع الشمس يغمر فريدة بحرارة
الشوق على القرب والبعد سواء ، وبضياء
الفكر الذي كان يلتقي على صفحات الخيال
صور حركاتها وسكناتها .

يا لضياع ذلك الغرام الذي كان هيكلها

يسبح في مخرائره فأراه مثال الجمال الروحاني .

ويا لضياغ ذلك الهيام الذي كان يطوف

بي في الفضاء حتى إذا عثرت فيه على ملاك

أقول هذا هو فريدة بعينها .

ويا لضياغ تلك الاماني التي لاحت فيها

أشباح السعادة السموية . ضاعت الحقائق

فاضمحلت معها الخيالات والاهوام .

وكان نعيم يسمع رثائي هذا وتأيني لحيي

الفصل الرابع

لفز الحب

الزعفراني لك ؟

لو ثقت دماغي رصاصة حينئذ لما
صرعته كما صرعت قلبي طعنة نعيم هذه .
أحسست بدوار في رأسي . كاد يعمي بصري .
فوضعت رأسي بين كفي مطرقاً واستعرضت
مخيلتي سلمى وأيامها ووداعها الآليم . وبعد
برهة رفعت رأسي وقلت . حقاً ان حب
سلمى لم يرد مني صدها إليها . ولكن
بين الحين فارقاً . لم أعاهد سلمى . ولكن
فريدة عاهدتني .

فضحك نعيم وقال : ليس في سنة الحب
يا عزيزي كلام ولا عهود ولا مواعيق ولا
عقود . وإنما فيه برق يومض ورعد يقصف
وشهاب يلمع ونار تتقد . لا سلطان للسان
على القلب . نحب من غير أن نتكلم . ونفهم
الحب من غير أن نسمع صوته . تتكهرب
بالحب من غير أن تلمسه . الحب أمواج
روحانية بين قلب وقلب . تصدرها نبضات
القلب الواحد فتصدم القلب الآخر فيتخافقان
قلت : حسناً ما بال قلب فريدة لم يحس
بموجات نبضات قلبي .

قال — سل قلبك لماذا لم يحس بموجات

نبضات قلب سلمى

قلت : ماد الآن يحس

قال : وماد قلب فريدة يحس

في مساء اليوم التالي وافاني صديقي
نعيم النعماني الى نيوبار في الميعاد . ولما جلس
قلت : لعلك موافيني لكي أعيد الكرة
عليّ مشفقاً .

قال باسم : كلاً البتة . لقد فارقتك
أمس وأنا لا أرى وجهاً للشفاعة . وقد
أنزلت الستار على الموضوع منذ أمس كما
أنزلته أنت ، وإنما وددت أن اطمئن على
هدوء نفسك إذ فارقتك وأنت في ثورة
نفسانية عنيفة جداً

قلت : أشكر لك عاطفتك الشريفة
يا عزيزي . أنت أكثر خبرة مني . فهل يمكنك
أن تقول لي كيف يمكن أن يرد صدى
الحب الشديد غشاً وخيانة ؟ أو على
الأقل فتوراً ثم انحرافاً ؟

فأطرق برهة غير وجيزة ثم رفع رأسه
ونظر في قائلاً : يلوح لي يا صاحبي أنك
تريد أن تطبق الحب على الهندسة — هندسة
الفعل ورد الفعل

فضحككت وقلت : أليس الحب سنة
طبيعية ؟ فيجب أن يتمشى على السن الطبيعية
قال — حسناً . وتوقع أن يكون

لكل حب صدى

قلت — نعم

— ماذا كان صدى حب سلمى بنت

تنبض مثلها كما يجابوب الراديو نبضات الاذاعة
ففكرت هنية ثم قلت : تنكاد توقعني
في حيرة . أتريد أن تقول لي ان القلوب
لا تتنابض إلا قلب لقلب ؟

قال : نعم الحب نبضة من قلب لا ينبض
لها إلا قلب واحد مثله . وأعني أن لكل
قلبين لغة خاصة ليست لغيرها .

قلت عجباً ! أليس الحب غريزة شائعة
في كل القلوب بلغة واحدة

قال : بلى الحب الحيواني غريزة كما تقول
والإنسان والحيوان الأعجم فيه سواء .
ولكن هذا الحب الذي يسميه البشر عشقاً
أو ولهاً أو هياماً ، أو تدلهاً هو حب آخر
علاوة على ذاك ، وإلا لما كان عندك فرق بين
سالمى وفريدة .

قلت إنك تطرحني في وعر من شعاب
هذا الموضوع لحدود له .

قال : أجل ان الموضوع لكذلك
قلت : أرجوك أن تتبسط في هذا
الموضوع لكي تنشلي من واهدة هذه الحيرة ،
ما هو الفرق بين الحيين .

قال : الحب الأول هو شهوة غريزية
شائعة في جميع الأحياء يثيرها فيها النضوج .
وفي الأحياء الراقية يثيرها أيضاً جمال الطبيعة .
وكان كلما ارتقى الحيوان ارتقى معه الجمال ،
فاشدد به الحب حتى صار شوقاً فغراماً الى
آخر ما تعلمه من تعابير الحب وأصنافه .
قلت : ما الفرق بين الحب الشهواني

قلت : « في الصيف ضيعت اللبن » الحب
يا عزيزي ضرب من الجاذبية كتجاذب
الأجرام السماوية . والجرم الأكبر يجذب
الجرم الأصغر . يتجاذب جرمان ، فاذا مرَّ
جرم ثالث أكبر منهما على مقربة من أحدهما
اجتذبه وخلف الآخر وحده شريداً . . .
وقد كان بيني وبين فريدة جذب قوي .
ولكن لما قرب ذلك الطيب الضخم بطبه
اجتذب فريدة الى أن أصبحت بيننا مسافة
بعيدة جداً . وقوة الجذب تضعف كمربع
البعد ، فلم يعد في الإمكان أن نتجاذب .
ولعل جرماً آخر أضخم من فريدة جمالاً
أو مالا أو كليهما مرَّ على مقربة من الطيب
فاجتذبه عنها . هكذا الحب جاذبية بين
متجاذبين

ففكر صديقي برهة مبتسماً ثم قال :
ولماذا لا تقول أن جاذبية الحب ضرب من
المغناطيسية يكون فيه معدنان مغناطيسيان
متقابلين فيمتجاذبان . فاذا تدابرا تنافرا .
فاذا تقابلت أنت وفريدة تمجاذبتما . وإذا بقيتما
متدبرين بقيتما متنافرين .

قلت : ولكن إذا عاد المغناطيسان
متباعدين جداً تضعف قوة الجذب كمربع
البعد كما لا يخفى عليك .
قال : ولكن لا تنس أن للموجات
الكهرطيسية تأثيراً عن بعدٍ سحيق .
وللقلوب النابضة موجات كهرطيسية كالموجات
اللاسلكية تؤثر في قلوب أخرى فتجعلها

البسيط والوله المتعاضم .

قال : ذاك مفعول الغريزة وهذا اختراع الخيلة . كلما ازددت حباً أو شغفاً سما تخيلك لجمال الحبيب . كنت تبغي وصلاً فأصبحت تطلب خيلاً . تكاد تغفل ذاك وتشبث بهذا .

قلت : أمرٌ غريب .

قال : أجل إنه لغريب ولهذا سُمي الهوى العذري . الهوى العذري هوى غريب لا يعيش إلا هنيهات التخيل فقط . متى كان الحبيب بعيد المنال تولى شأن حبه الخيال . يتمتع العاشق بصورة جمال المعشوق بدل تمتعه بذاتته . تقوم الصورة مقام الذات ما دامت الذات ممنوعة ، فتى حضرت الذات تبدد الهوى العذري بخاراً . وبرز الهوى الغريزي . خريٌّ بذاك الهوى ان يسمى الهوى المكسري بدل الهوى العذري فأطرقت مفكراً بحديثه مستغرباً فلسفته الى أن قلت : هل لك أن تقول لي الآن أين أنا من مراحل الحب هذه !

قال : لقد عبرتها كلها . وأنت تتنقل بينها كل يوم . تكون في حب غريزي فاذا بك انتقلت الى حب روحاني ، فالى هوى عذري . فكلما قرب الحبيب اليك كان حبك حيوانياً . وكلما ابتعد عنك صار حبك روحانياً .

بعد تفكير هنيهة قلت : هناك جميلات عدة فلماذا يقيد العاشق قلبه بحب عذري

واحد ، لا يروي غلة ولا يشفي علة .

قال : في نظر العاشق ليست الجميلات في طبقة واحدة من الجمال . فهو يطمح الى أجملهن في نظره ، وكلما امتنعت عليه تعاضم جمالها في نفسه ، فيتعاضم حبها في قلبه حتى يصبح هوى عذرياً ، وحينئذ يكون أقوى سلطاناً من الحب الحيواني . ولكن هذا الهوى العذري لا يتسلط عبثاً بل يمنح الحب الحيواني قوة هي أضعاف قوته . ألا ترى ذلك في الفرق بين الحيوانات والبشر ؟

قلت : حقاً ان الهوى الروحاني هو أقوى حب . أصبحت الآن أحب سلمى الزعفراني فوق كل حب وهي بعيدة عني ولا أعلم أين مقرها وماذا كان مصيرها . أصبحت أعبد طيفها ، أحب خيالها الذي يلوح في بالي ، أتلذذ بذكرياتها الماضية . يا لله ما هذا الحب !

قال : وفريدة الآن أقرب اليك جداً وهي في منال يدك .

أجل : أما قلت ان الحب الروحاني أقوى من الحب الحيواني . لم تعد فريدة مركز حي . لقد بعدت فريدة عني جداً بمكرها وخداعها . دعها للقضاء والقدر . وأنا مثلها للقضاء والقدر . كل منا في اتجاه خاص : مغنطيسان متدابران .

وافترقنا نعيم وأنا على هذا القرار .

الفصل الخامس

التعالب

قالت : أزمة لا أدري كيف تنفرج
قلت : لكل أزمة منفرج . فما هي
أزمتهك ؟

قالت : قرر الأطباء أن عند زوجي
قرحة في فم المعدة ، ولا علاج لها إلا العملية
العاجلة أو القبر ، وليس عندنا الخمسون جنياً
أجرة الجراح وكراء المسقيشني
قلت : طيبي نفسك وقرري عيناً . الخمسون
موجودة .

قالت : ألف شكر يا عزيزي . ولكن
يجب أن تفكر بوفاء هذا الدين أيضاً .

قلت : هذا أمر غير عاجل . العاجل
هو العملية . ولكي يكون بالك مرتاحاً
أتقاضي هذا الدين على مهل أقساطاً زهيدة
كل شهر من أجرة سكنائي معكم

فكانت الأسرة في سرور عظيم لتفريج
هذه الأزمة . وبعد مدة النقاهة عاد السيد
صديق الكرومي الى بيته سليماً معافياً
شاكراً لله ولي .

وكان تمت سرّاً لا أفهّمه وهو أن
سليم الصافي أخت السيدة عبلة زوجة صديق
تاجر أجواخ . وكان في أمكانه أن يفرج
غمة أخته وصهره . فلماذا لم يفعل ؟ لم أجد
تفسيراً لهذا السرّ إلا ما علمته من أن
اسليم على صهره ديناً من ثمن أجواخ لم

فيما كنت في البنك أستصدر حوالة
مالية تعرفت بالموظف القائم بالأمر إذ تلتطف
معي جداً . ورأيت به بعد ذلك يمر بالقهوة
التي اعتدت الجلوس فيها فدعوته لفنجان
قهوة . وصرنا بعد ذلك صديقين . وفي
خلال الحديث شكوت له من سوء حالة
المنزل الذي أنزل فيه مع إني أدفع أجرة
حسنة . فقال لي : اذا شئت أن تسكن معنا
فعندنا لك غرفة منفردة مستوفية جميع
وسائل الراحة . فسررت من هذا الاقتراح
قبلته شاكراً .

في المنزل أبٌ مسنٌ يدعى صديق
الكرومي وزوجته وابنه نسيم هذا
وثلاث فتيات صغيرات . والظاهر أن السيد
صديق تزوج متأخراً . فقد شاخ وأولاده
لا يزالون صغاراً . وكان خياطاً . وقد قلّ
عمله بسبب شيخوخته . ولذلك سررت
الأسرة بوجودي معها إذ أحمل شيئاً من
عبء أجرة المنزل . وما لبثت أن أصبحت
كواحد من الأسرة . واشتدت أواصر
الصداقة بيني وبين نسيم وأهله .

وبعد حين من الزمن شعرت أن في
البيت اضطراباً ولوائح غمّ ولفحات همّ ،
والسيدة عبلة زوجة الشيخ صديق تذرف
دموعاً . فسألتهما : ما الخبر يا سيدي

لا تدع أحداً يعلم بشيء من هذا .
فقلت له أشكر لك نصحك لي وله .
لا أريد أن يؤذى الفتى وهو يكاد يكون
وحده عماد البيت .

ورجعت الى السيدة عبلة أم نسيم
ورويت لها تفاصيل ما كان . فكادت تبحن
من الأسف ، وشرعت تحاول أن تقبل يدي
استغفاراً لآلئها . فطابت خاطرها .

ولما سئل نسيم عن سبب جريمته هذه
قال إن عليه ديناً اضطر أن يوفيه على أمل
أن يرجو مني أن أحسب المبلغ ديناً عليه
ويكتب لي صكاً به . وإنما كان يتحين
الفرصة المناسبة لهذا الرجاء . فعذرته بعض
العدر . ولكنني لم آخذ منه صكاً .
وشعرت أفي إذا أضرت على استيفاء المبلغ
أرتكب جريمة ضد هذه الأسرة المسكينة ،
فمحوت المبلغ من ذاكري بتاتاً ... كأنني
مسؤول عن مظالم الزمن للناس أو جور
القدر على البشر

علمني أبي أن أحسن معاملة الناس لأن
حسن المعاملة شرط للنجاح . ولكنه لم
يعلمني أن أنجاز حسن المعاملة الى التضحية .
وها قد أحسنت بل تصدقت فجوزيت خساراً
لله من أحكام أدب النفس الخائبة
تحسن يساء اليك . إذن أسوء
فيحسن اليك
والضمير ؟

يستطع صديق إيفاءها ، فلم يرد أن يضيف
ديناً الى دين لم يوف . والافانية حتمه من
تأنيب الضمير .

على أن ديني لم يوف ولم أصير على
استيفائه لأنني رأيت أن مورد صديق ضئيل
وماهية ابنه نسيم من البنك ليست كافية
أيضاً لسد عجز نفقات الأسرة . فبقيت
أجنب ذكر الدين لكيلا تتجرع عواطف
الأسرة . وما زلت أدفع أجرة غرفتي .

وفي ذات يوم أعطيت نسيماً خمسين
جنيهاً لكي يدفعها للبنك وديعة باسمي
كالعادة ، لكيلا أضيع وقتاً في الذهاب الى
البنك . وفي آخر الشهر ورد لي بيان البنك
عن حسابي فيه وليس فيه ذكر للخمسين
جنيهاً . فاستغربت الأمر ومضيت توّاً
الى البنك وسألت عنها الموكل في الأمر
فقال . لم يرد المبلغ للبنك من أحد قط .
قلت إذن نسيم تصرف به ولم يقل لي . أظن
أن الطريقة المثلى لاستيفاء هذا المبلغ منه
أن ألتبس من البنك أن يستقطع من ماهية
نسيم قسطاً كل شهر .

فقال الموظف : البنك لا يستقطع
قرشاً من ماهيته لحسابك وإنما يقطع رجليه
من الدخول الى البنك . فأنصح لك أن
تسوي المسألة معه مباشرة من غير علم البنك
لئلا تؤذيه ولا تنفع نفسك . وسأُنصحه
أنا أيضاً أن يتلافى الأذى لنفسه ولك .

محببة لأن معظم عبء الأسرة واقع على كاهله .

مضى على شركتنا بضع سنين كانت ناجحة . ولكنني كنت متمعضاً من شريكي سليم لأنني كنت ألاحظ عليه تلاعبه أحياناً . وكان هو يتمعض أيضاً من ملاحظاتي . ولما لم يعد يحتملها طلب اليّ أن نحل شركتنا . فأجبته الى طلبه .

واقسمنا البضاعة وسوينا الموازنة باقتسام النقد والديون . وبقي له عليّ دين نقدي . واتفق في ذلك الحين أن تاجرأ اشتري مني شروء بقيمة ١١٦ جنيهاً بالنسيئة بصك (كبيالة) . فكتب نسيم الصك حسب العادة ووقع عليه المدين . ثم حوّل هذا الصك الى سليم الشريك المنفصل من قيمة ما بقي له من الدين عليّ . انفصلنا على وفاق وبقينا صديقين .

وما لبث نسيم أن انفصل عني وانحاز الى خاله .

ورام سليم أن يوسع تجارته فاشترى واستدان . وفي ذات يوم التمس مني أن أضمنه في دين بقيمة ألف وخمسمائة جنيه . فلم أتردد في ضمانته لأنني لم أر في معاملته لي ما جعلني أوجس منه .

ولما استحققت الكبيالة على ذلك المدين بقيمة ١١٦ جنيهاً فإذا البنك يطالبه بألف

الضمير الذي رباه الوالدان ؟ من يستطيع كم فيه

في ذات يوم بعد حين جاءني سليم الصافي أخو عبلة وخال نسيم الكرومي وقال ، أنت يا سيد يوسف شاب ذكي مثقف طيب القلب جداً كما نعرفك وكما يقول الناس عنك . فعملي م تضيع وقتك ومجهود شبابك في تجارة قليلة الربح وسخة متعبة ؟ اقترح عليك اقتراحاً نافعاً لك ولي . لقد اخترت أنا تجارة الأجواخ والربح فيها أضعاف أرباح البدالة (البقالة) . فاذا صفيت تجارتك وأضفت رأس مالك الى رأس مالي واشتغلنا معاً وجدت أرباحك مضاعفة .

وما زال يقنعني بهذه الشركة حتى اقتنعت واشتركتنا .

وقد صدق حساب سليم ورأيت أن أرباحنا تنضاعف وسررت بحسن النتيجة . ولما ثقل الشغل علينا قال سليم : أظن أن ابن أخي نسيماً (الكرومي) يفيدنا جداً اذا استخدمناه كاتباً حاسباً . وهو مثقل في البنك حيث أجره ضئيل . وفي الوقت نفسه يمكننا أن نستقطع من مراهيته الدين الذي لك عليه وعلى أبيه وقد طال عهده .

قلت لقد محوت ذلك الدين من دفثري ومن ذا كرتي . فلا تذكرني به . لا بأس أن نستخدم نسيماً ونُدفع له ما هيته كاملة

وأخيراً أثبت التحقيق أن الكميالة المزورة كانت بخط نسيم ابن أخت سليم وأن الألف التي أضيفت إليها كانت بخطه أيضاً. ولكن مع من تواطأ نسيم هذا؟ أمع خاله أم معي؟ بقي هذا سرّاً للقضاء. فحكم القاضي على نسيم بالجريمة وبراً خاله. وحكم عليّ بدفع المبلغ كله. ولولا اعترافي بالصدق أي أن أصل الكميالة ١١٦ فقط وظهور حسن نيتي وبراعة المحامي لبقيت في السجن بضع سنين.

هذا كان جزاء طيبتني وحسن نيتي وخدمتي للإنسانية وعطفي على آل الكرومي. فما أصدق القول «أتق شرّاً من أحسنت إليه» ولما نظر القاضي في قضية تقلبستي وبُسطت له جميع ملاساتها ووجد أن ما عندي من المال والبضاعة يغطي الدين الذي عليّ قال في حكمه: «لم أجد في مدة قاضيتي تقلبسة أشرف من هذه التقلبسة» وخرجت من المحكمة وليس عندي من رأس المال غير هذه الشهادة الثمينة من القاضي العادل. وهي حسبي والله نعم الوكيل يوم الدين.

ولما حدثت هذه الحياتان خرجت من بيت الكرومي مشفقاً على أولئك الصغيرات، واستأجرت منزلاً صغيراً ووضعت فيه الأثاث الضروري واستقلت في سكنائي وبعد تصفية تجارتي وإيقاء المطلوب مني بحسب القانون بقي معي من النقد قدر

ومائة وستة عشر جنياً (١١١٦) فغنّ الرجل لما رأى الكميالة ناطقة بهذه القيمة وهو قد وقع عليها بقيمة ١١٦ فما كان منه إلا أن أبلغ النيابة حالاً بتهمة الزور. وما كان من النيابة إلا أن قبضت عليّ. ولما استجوبني وكيل النيابة قلت أن المبلغ بقيمة ١١٦ جنياً فقط. ولا أدري كيف حصل الزور. وأما سليم فادّعى أني حسبت الكميالة عليه بقيمة ١١١٦ كما قبضها من البنك. وأظهر في دفاتره بيان الحساب الذي تسوّى بيننا وفيه قيد الكميالة بهذه القيمة، فظهر للنيابة أن الزور حدث عندي على الرغم من اعترافي بالمبلغ الحقيقي وبإنكاري أني لم أسدد لسليم إلا ١١٦ جنياً فقط وأن الألف تسدّت بضاعة. وكان الخطأ مني إني وثقت بأمانة سليم واستقامته. ولم آخذ منه «مخالصة» بيننا تنص على ما أعطى وما أخذ.

فسلامة نيتي وثقتي بسليم زجّاً بي في السجن.

وفيما كنت في السجن أساوم محامياً للدفاع عني كان سليم يبدد بضاعته ويهرّب ما له ويرتب دفاتره. ولما استحقّ الدين الآخر الذي ضمنته عليه لم يكن له ما يوفي فعاذ الدائن إليّ.

وبواسطة دفاع المحامي خرجت من السجن بكفالة مالية ووجدت نفسي في حالة إفلاس. فقدمت دفاتري للمحكمة.

زهيد أستمين به ريثما أتوفق الى تدبير آخر
لمرتضى .

لاح لي أن أبي كان مخطئاً يوم علمني أن
الاحسان للناس خير سبيل الى السعادة، لأن
فيه سلاماً للضمير، وسروراً للنفس ليس
بعدها سرور. وأنا لم أجديهما إلا خسراناً
واساءة لي

وقد تعلمت من معاملة سليم الصافي
وابن أخته نسيم الكروي أن الناس متى

عثروا على شخص طيب القلب حيّ الضمير
اكتشفوا لقطة يسهل عليهم استغلالها
وهضمها بلا عناء . فالرجل الرجل هو الذي
يغتم الفرص ليكون هاضماً لا مهضوماً .
وميت الضمير يلتهم الضمير الحي . والطالح
حَلَمَ يعيش على دم الصالح . والخبيث خطر
ينبت على الثمرة الشهية ليتغذى بها .
لماذا لا أكون حَلِماً أو خطراً فاستغل
خير غيري . ولكن كيف أستطيع أن أفعل
وسيف الضمير مسلول فوق عني ؟

الفصل السادس

الانسان الضاري

تسرى ماذا أسأت حتى كوفئت هذه
المسكافات الرديئة ؟

أجل كسرت قلب فتاة أحببتي وأحببتها
في عهد الصبا تدعى سلمى الزعفراني، أيتمكن
أن تكون هذه النكبات عقاباً لي لأنني
خيت أمل سلمى ؟

ولكنني لم أعد سلمى أي وعد حتى
أقول إني أخلفت لها وعداً أو فكنت لها
بوعد .

هذا عالم لا يعيش فيه الصديق والأمين
أو الخالص . ان الذين نفعتهم من التجار
وغير التجار والأصدقاء لم أرَ واحداً منهم
يؤاسيني في نكبتني ، لئلا يضطروا أن
يمرضوا عليّ مساعدة . ولعلّ كثيرين منهم
ما زالوا يظنون أنني مرتكب جريمة الزور ،
وإني ما نجوت إلاّ بمهارة المحامي . ولعلّ
بعضهم كانوا يتسلون في أحاديثهم بتفاصيل
قصتي ويزخرفونها بأباطيلهم .

وكان صديقي صلاح يسمع رثائي لنفسي
مطرقاً من شدة تأثره واشفاقه عليّ . ولما
سكت متنهداً رفع نظره اليّ وقال : —

لقد روى لي الأستاذ حلمي محاميك
قصة تفليسك، وهو آسف جداً للحيف الذي
وقع عليك فجئتك . لالكي أواسيك لأنك
لم تخسر في قضيتك إلاّ المال . والمال في

بعد ان خرجت من المحكمة عكفت
مساء الى إيوان فندق الكوئنتنتال حيث
اعتدت أن أجلس في بعض الأحيان مع
بعض الأصحاب لكأس من الشاي أو القهوة ،
وجلست وحدي في زاوية بعيدة عنها
أحاسب نفسي على ماضي .

عند ذاك جاءني صديق حميم هو الأستاذ
صلاح عادل المدرس في كلية الحقوق وجلس
معي وهنأني ببرائي وعزاني بخسراني
وعنى لو يستطيع أن يساعدني بشيء .
فشكرت له عطفه وقلت : ناهزت الأربعين
من العمر . ولكنني كنت أحس أنني مقارب
الشيخوخة لأن النكبات التي مررت بي منذ
الصبا الى هذا الحين أهرمتني : اخفاق في
الحب لم يخفقه قيس ليلى .

خية في الصداقة لم يخبها يوسف
الصديق في أخوته .

وانخداع في أمانة الصحاب لم ينخدعها
المسيح في أمانة يهوذا .

أحببت بكل جوارحي فكوفئت بخيانة
صادقت وصادقت فخذعت .

أحسنت فأذيت .

وآسيت فألمت .

تصدقت فنسبت .

عظفت ففسي عليّ .

أن تنازع البقاء الشائع بين البهيم في المملكة الحيوانية تحول الى تعاون وتكافل للبقاء والارتقاء في المملكة الانسانية . وبه تفوق الانسان على الحيوان

فقال ضاحكاً : أجل هذه سنة التطور التي تسمى أحياناً سنة الارتقاء . فلا يخفى عليك أن هذه السنة قلما تكون نقضاً للموجود ، بل يغلب أن تكون إضافة الى الموجود . إن للحشرة جهازاً هضمياً ، وللزحافة جهازاً هضمياً ، ولكن الزحافة أضافت الى جهازها الهضمي هيكلًا عظمياً وجهازاً عصبيًا ، والانسان أضاف الى هذه الأجهزة كلها جهازاً دماغياً عقلياً أيضاً . أعني انه لما ارتقى الانسان الى هذا الحد لم يتخل عن جهاز الحشرة الهضمي ، ولا عن هيكل الزحافة العظمي ، ولا عن جهاز البهيمه العصبي ، بل أضاف الى كل هذه دماغاً يعقل .

وهكذا لما ارتقى الانسان لم يتخل عن بطش الوحش الضاري ، ولا عن فتك الذئب ، ولا عن خبث الصل ، ولا عن مكر الثعلب ، ولا عن لؤم ابن آوى ، ولا عن خساسة الخنفسة ، ورثاء الحرباء ، وفتاق الرتيلاء ، وغدر الهرة ، الى ما هنالك من رذائل الحيوانات . فهذا الحيوان الذي تسميه بشراً راقياً ، لم يغير تطوره طباع حيوانيته بل لوّنها بألوان البشرية ، وطلاها بطلاء الانسانية . تحت هذه الانسانية التي تفرك بجهاها وطهارتها ،

منال يدك تحمله بقليل عناء . وإنما جئتكم لكي أهنئكم بالشرف الذي منحكم القضاء البشري . وما كانت شيمة القضاء البشري أن تمنح شرفاً لأحد . بل القضاء يحكم على المجرم بعقوبته ويتفضل على البريء بالافرار ببراءته — قطعت الألسنة التي تشمت بك يا عزيزي ، ما هي إلا ألسنة الأفاعي تقطر سمًا فقلت : لم أرى يا أخي إلا ألسنة تقطر عسلًا . ولم أدر ان في العسل سمًا إلا اليوم . لاني كنت معولاً على الآية الانسانية القائلة : « ظن بالناس خيراً الى أن يبدو لك منهم شر » .

فهن رأسه وقال : أنا أنصح لك يا أخي أن تعكس هذه الآية التي تظنها انسانية وما هي إلا شيطانية . ظن بالناس شرًا الى أن يثبت لك الخير منهم . إنك ترى نفسك على الأرض بين أناس من الانس تظنهم انسانيين وما هم إلا انس انسانيين . ليس على الأرض إلا فيالق من الجن الشياطين يعيشون في الأرض فساداً ، وأسراب من الملائكة الأبرار يفرّون من أمامهم الى الكهوف لتختبئهم والى الأدغال يستخفون فيها . وأما فوق الأرض فلا ملائكة ولا تحت الأرض أبالسة . وما الأبالسة إلا هؤلاء الذين تراهم على سطح الأرض بشراً وما هم بشراً . ما زالوا كما نشأوا حيوانات تتنازع البقاء .

فقلت : إني أستغرب قولك هذا وأنا أعتقد ما علمته من أقوال الحكماء والكتاب

متخلفاً بأخلاق الثعلب المكار، والصل الخبيث، والخنفسة الخسيسة، والهرباء المرائية الخ، وقد زعم أنه اخترع القضاء والقوانين لكي يتلافى هذه الشرور.

قلت: إذاً في خلق الانسان ميل الى تلافي الشرور، ولذلك اخترع القضاء والقوانين لتلافيها.

فققه وقال: وهل تلافاها؟ أم زادها شراً على شر؟ هل ترى في القوانين انصافاً وفي القضاء عدالة؟ هل أنصفت القوانين الضعفاء من الأقوياء؟ هل جعلت بؤس المعدم يقف ليصد بطر الثري؟ ألا تحكم المحكمة عليك بالحبس إذا اختلست قرشاً وبغرامة قروش إذ جرحت شخصاً جرحاً بليغاً. كأن المال المسروق أعز جداً من البدن المجروح. وهل هذه القوانين فرقّت العدالة على الناس بالسواء؟ أليس بين الناس تفاوت في التمتع بالعدالة؟ فإذاً هذا القضاء وهذه القوانين لم تتلاف شرور البشر، ولم تكبح جماح الطباع الحيوانية التي لا تزال مصاحبهم من عهد العهد الشرس، والدئب الفاتك، والثعلب اللئيم، والصل الخبيث الخ. الانسان يا صاحبي حيوان ضار عاقل، وعقله رقى ضراوته، وعظم خبثه، ومكره ولؤمه، وقوى بطشه وفتكه.

فقلت: انك يا صاحبي تجعلني أمقت هذا الانسان وأهرب منه. ولكن الى أين؟ قال: تهرب الى الحذر والايحاس منه.

تكن طباع البهيمية الرذيلة، حتى إذا تهيج الطبع الحيواني برزت تلك الأخلاق الشريرة، فلا تؤمن يا عزيزي لمحاسنة الناس ومجاملاتهم وودهم وكرمهم لأنهم ما زالوا حيوانات ضواري.

فتمجبت من كلام صاحبي هذا وقلت: ولكنك يا عزيزي سهوت عن الاخلاق. الانسان ارتقى جداً عن الحيوان، ليس بمجهازه العصبي الدماغى العقلي فقط، بل بأخلاق بنيت بها المدنية الحاضرة. فهل تستطيع أن تتصور مدينة بلا اخلاق. وما معنى التطور إذا لم يترق البشر في الاخلاق والطباع، كما ترقوا في الأبدان، وتطوروا في الأدمغة، وارتقوا الى أعلى عليين في العقول. ومن أين جاءت لهذا الانسان الذي لا تزال نحسبه حيواناً ضارياً، أخلاق المحبة والرحمة والرفق والعدل والأنظمة السياسية والقضائية والقوانين الخ.

قال ضاحكاً: لقد فكرتني بأغرب نوع من أنواع المكر الانساني الذي يتفوق به الانسان على كل مكر حيوانى. هذه القوانين التي تستنصر بها، هي أبلغ أنواع المكر. ما لزوم هذه القوانين التي يقبجح بها الانسان، ويتعالى على الحيوان الأعجم إذا كانت الاخلاق قد ارتقت الى المحبة والرحمة والرفق والعدل. أليست هذه القوانين والمحكم والقضاء والاحكام شهادة ناطقة صادقة على أن الانسان شير الطبع لا يزال

أن تغمض عينك عن الأفاعي والثعالب لئلا
تسطو عليك فتفترسك .

لا تكن لعلجة ساذجة ، وإلا فالضواري
لك بالمرصاد . وإنما كن جاموساً مستعداً
للمناح اذا سطت عليك الأسود والحرمة

إعلم يا عزيزي أن أولئك الضواري
لا يقصدون الى الأفيال ذوات الخراطيم التي
تصنع وتصرع ، ولا الى الجواميس ذوات
القرون التي تبقر البطون ، بل يقصدون الى
الأغنام الصالحة ، والأنعام المسالمة ، لكي
يفتكوا بها .

كلما ظهرت منك طيبة القلب أغرت
هؤلاء الأشرار الخبيثاء أن يحوموا حولك
ليقتنصوك . فلا تبالغ في الطيبة . ولا تغال
في التسامح لئلا تكون فريسة للطامعين
الغاصبين . فإذن تسامحك مع آل الكرومي
أطمع نسيبهم سليم الصافي أن يغدو بك .

لا تعتمد على القوانين في الحرص على
نفسك ورزقك ، فهي أوراق صماء عمياء ،
لا قوة لها بنفسها لكي تحميك . ولا
تعتمد على منفذي القوانين ، فما هم إلا من
طينة هؤلاء البشر الضواري الذين حذرتك
منهم .

لا تظن أن ما تسميه تطوراً نسخ من هيكل
الإنسان صورة الحيوانية الشريرة ، أو لظف
جوهر البهيمية المفترسة . بل بالأحرى
تطورت فيه هذه الحيوانية أيضاً ، فتطور
المكر الى نفاق ، وتطورت الحيلة الى دهاء ،
وتطورت الشراسة الى فظاعة ، وتطورت
القوة الى ظلم ، وتطور الميل الى جشع ،
والشوق الى بهم ، والحب الى شهوة . فما
تسميه ارتقاء في الإنسان إنما هو ارتقاء في
الحيوانية والبهيمية أيضاً ، ارتقاء في الشراسة
ارتقاء في التنكيل والتفطيع . أجل لا يزال
هذا الإنسان حيواناً . فاعلم أنك تعامل
حيوانات ، نعم حيوانات تعامل . والحيوانات
ضربان : ضوار وأنعام . وذئاب وأغنام .
وأفاع وحمام . فان كنت غنمة كنت غنيمة
للذئاب ، أو حمامة كنت فريسة للثعالب
والأفاعي ... لقد كنت يا عزيزي غزالاً
نشطاً سريع الجري . فلما غفلت انقضت
عليك الأسود والذئاب وجعلت تنهشك ،
لا أقول لك كن ذئباً لكي تنهش وتنشع ،
أو أسداً لكي تفتك وتتخم ، وإنما أقول
لك ابق غزالاً نشيطاً لكن يقظاً . ولا بأس
أن تكون حمامة ودیمة . ولكن حاذر

الفصل السابع

من عالم الغيب

بعد دقائق أقبلت عليها من باب الفندق فتاة أخرى لا ندري أملاك هي أم إنس . سبجان من أبداع . ليس لقلم قدرة على وصف ذلك الجمال الروحاني . تقدمت إليها ووضعت كفها على كتفها وجعلت تكلمها همساً . ترى هل هما شقيقتان ؟ أم الثانية بنت الأولى ؟ الله أعلم .

هي دقيقة وإذا بسيارة ضخمة عظيمة القدر قد وقفت أمام سلم الفندق . فألقت الأنظار واستوقفت المارة للفرش عليها ، لأنه لم يوجد في مصر في ذلك الزمان سيارات إلا لسمو أمير البلاد ، ولقليل من الأمراء والكبراء ، لأن اختراع السيارة كان ابن ذلك العهد . ومشت المراتبان إلى السلم ، فتناول يديهما حوذيان ، وأزلاهما إلى السيارة فصعدتا إليها واستوتا فيها شمسين في أفق واحد . وكان ذلك من شواذ الطبيعة . ودرجت السيارة تستوقف المارة إلى أن توارت .

وبقينا نحن برهة نتحدث في ذلك الجلال البهي . من أي ملكوت هي (أوها) ؟ الإنكليزية ، أو أميركانية ، أم فرنسية ... أي نوع السافي . رجح لنا أنهما أميركيتان ، لأن هذا الترف الباذخ نادر في غير الأميركانيات الثريات .

وكنا قد جلسنا في الصف المشرف على الطريق في الكونتيسة كعادتنا نشاهد السابلة . وما هي إلا دقائق حتى ألقت نظرنا سيدة برزت من باب الفندق العظيم ، يمكن أن مخاطب بلفظ « سموك » إذا لم تخاطب « بذات الجلالة » . لم يشاهد في الشرق مثل ذلك سمو الأرسطوقراطي . وافتتهدت بحليتها السندسية الأنيقة كالطاووس في إبان تنفسه . وفي أذنها وعنقها وأصابعها من الجواهر ما يحول مصرفاً (بنكاً) . وفي محجريها مقلتان تتدفقان أشعة تحترق الصدور وتبهر العيون ، وتغرها يومض بروفاً تحطف الأبصار .

جلست على كرسي نغم كأنه معد خصيصاً لها . ثم أطافت نظرها في المكان ورمت ببصرها إلى الميدان . واستوقف ناظرها مجتمعنا ، ونحن مأخوذان بتلك الأبهة السماوية لا نستطيع أن نرد بصرنا عنها . كأن أشعة مقلتيها أسلاك ذهبية اشتبكت بأحدافنا واعتقلتنا . وأوسعنا تحديقاً إذ لاحظت انبهارنا . وحلقت قليلاً ، فارتدت أبصارنا مسحورة .

لم يمكننا أن نحكم في أية سن هي . فقد تكون كاعبا ، أو صبية ، أو في شرح الشباب الناضج ، أو أول الكهولة .

لجأت في تلك الليلة الى سريرى وذاتك
الاقنومان السماويان لايرحان من مخيلتي .
هل نبض حب جديد في قلبي ؟ هل تعشق
الأرض الشمس ؟ لا بل تعبدها لأن لها منها
الحياة .

أما تبت عن الحب يا هذا ؟ هل أتعرض
لحبيبة أخرى في بقية الحياة ؟ وهل بقي من
الحياة ما يسع حباً .

وكان حديث صديقي صلاح لا يزال
يتردد في ضميري، حتى خُيِّل لي أن هذا
العالم المسمى ملكوت الانسان ما هو إلا
مملكة الشيطان أو مستعمرته . لو وقعت عظة
صلاح في نفسي موقع القبلة في البيت
لدكتها . شرعت نظريتي في البشر تتغير ،
وفي العدالة تعدل ، وفي الأخلاق تتطور .
آه . ليت الشباب يعود .. لعلني أصلح
أغلطي ، وأجدد كفاحي ، وأرمي به الى
الفلاح ، حسب عظة صلاح .

في المساء التالي رأيتني ماضياً الى ايوان
الكنيسة نالت بقوة لا تقاوم . لا أدري من
أي جو نزلت علي تلك القوة فساقنتي رغم
أنني الى ذلك الفندق لاني لم أعد في حالة
تسمح لي بالتمتع بلذة الحياة ، مادام القلب
مفعماً غمماً ، والصدر مطبقاً غمماً .

جلست في موضعي المعتاد ، وكأن
أجفاني مفعودة بأسلاك متصلة تارة بذلك
الكرسي ، وتارة بباب الفندق الواسع الذي

بدت الملكة منه أمس .

يا الله ! ما أعجب عجائبك يارب ، لأول
نظرة في ذلك الباب الرقيب ، بدت ذات
الجلالة تهادى بثوب أبيض ناصع ، لأدري
من أي نسبيج هو ، لا ديباجة فيه سوى
نخمة منمقة من البياض أيضاً . بدت كأن
الشمس أطلت في كبد السماء من بين الغيوم
فقصعت السحب من حولها ، وكأن الجسد
كله ظهر بياض نهار لا تعشاه لطفة من
غمام .

وتقدمت وجلست على كرسيها يسند
ظهرها ظهره المخمل المائل الى الوراء .
وشرعت الأحجار النفيسة تتألق في أصابعها
وأذنيها وعنقها وتاج شعرها .

وأوسلت أبصارها الهويناهنا وهناك ،
تستكشف الجلّاس ، وتبين حركات الناس ،
وما وقع نظرها في ناحيتي بل تجاوزها .
ولماذا تحتصني بنظرة بين عشرات الناس
ومئاتهم وألوفهم . حقاً إني لغرير بأن
أفكر بصلة بيني وبينها سوى صلة الجو
يحويها كما يحوي جميع الناس .

سبحانك اللهم الحجاب أسرار الكون ،
والمغلق غوامض العالم . ما هي إلا هنيهات
حتى تقدّم الي الساق (الجرسون) وقال :
« تلك السيدة الجالسة وحدها في اليمين
تدعوك اليها »

خملت فيه وقلت : أنت غلطان ، ليس
ايادي من هي تدعو .

قال : « بل أنت هو . لقد أرشدتني اليك بصراحة ووضوح .

— من هي ؟

— لا أعرف عنها شيئاً سوى أنها سائحة عظيمة . ربما كانت أميركية .

— قل لها أن تأتي الى هنا ان كانت في حاجة اليّ .

فتردد الساقى وقال : لا أظن أحداً في الدنيا يجاوب هكذا على رجاء سيده عظيمة كهذه حتى ولو كان ملكاً . لقد أبلغتك الرسالة وأنت حرّ فيما تفعل .

وانثنى الساقى في سبيله ، وتقدمت اليها وانحنيت لديها . فبسطت يدها مرتفعة . فما شعرت إلاّ رأسي ينقض على تلك اليد العاجية وفي يهب قبلة من سلامة تلك الكف وهي في كني . وقلت بالانكليزية : إني في خدمتك يا مولاتي إن كان الساقى لم يخطئ في استدعائي اليك .

فأجابت بالانكليزية الفصحى . لم يخطئ ، إياك دعوت . تفضل اقعد

وأشارت الى الكرسي المقابل لها والخوان بيننا . فقعدت . وقالت باسمه : لماذا كنت أمس واليوم تحدق فيّ بلا انقطاع ؟ قلت : كيف عرفت أنّي كنت محدقاً فيك ؟ قالت : رأيتك كذلك

قلت : اذا كنت تنظرين فيّ بلا انقطاع فلماذا ؟

قلت بإتسامة ساطعة وبخيلاء :

تحديقك بي ألقت نظري فوددت أن أتبين غايتك .

— حسن . فلماذا تبينت من غايتي ؟

— بقيت غايتك سرّاً لي . فلماذا لا ترد نظرك عني .

— عجباً . أما طاف نظرك على جانبيك فرأيت كل الاحداق من حولك تمنطقك .

فلماذا تخصيني وحدي بهذا السؤال ؟ وهل للشمس أن تقول للسيارات لماذا توجهن أبصاركنّ اليّ ؟

فتبسّمت إبتسامة لمعت كوميض برق وقالت : وما شأن الناس بي حتى إذا جلست برهة هنا امتلاً المسكان جلاّساً .

قلت : لله درك يا سيدتي . وهل يستطيع الجلاّس أن يفلتوا من حبال هذا البهاء المغنطيسي ؟ هل يقدر السيار أن يخرج من منطقة الجاذبية ؟

فقهقهت قهقهة لطيفة وقالت : أظنك بين السيارات زُحل .

قلت : ما الذي آظنك هكذا ؟

قالت ضاحكة : لأنّ أكاليك النورانية تستهوي الراصدين .

قلت : ليقني كنت عطارداً لسيّ أكون أقرب السيارات الى الشمس .

قالت : فو لكان أقربها . أفلا تتمنى أن تكونه .

قلت : ألا خوف من الاحتراق في مكان فو لكان .

تبغين أن تمنحيني عشر لومات لكي تتقاضي
مني عشر دمعات بدلها .

لا أظلمك يا سيدي . تطبق الآية الذهبية :
« كما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوا أنتم
بهم هكذا أيضاً » .

اشتدت حيرتي بهذه المرأة إذ لم يخطر
لي أنني رأيت في حياتي امرأة أجنبية تكلمني
بالانكليزية الفصحى قبل هذه . فقلت :
لملك يا سيدتي مخطئة . فما غريمتك أنا .

فقهقته ونطقت بالعربية : لست مخطئة
البتة . إنني أكلم السيد يوسف العنساوي .
فلما رفت في أذني اللهجة اللبنانية
حملت فيها وتوسمت السحنة القديمة من
خلال ذلك البهاء . وقلت : سامي ؟
الزعفراني ؟ أحقيقة أرى أم حلاماً .

فقلت : بل حقيقة سامي ترى ، عقيلة
توم ستنفورد ملك الكوتشوك في الولايات
المتحدة الأميركية ، صاحب مثني مصنع
للمطاط على اختلاف مصنوعاته .

فأجفلت وقلت . إذن لم يخطيء ظني
إنني في حضرة ملكة الآن . فعذراً ومغفرة
لما يمكن أن أكون قد ارتكبت من سوء
السلوك .

قالت : لقد تركت عرش المملكة إلى
حين وجئت إلى الشرق لأجل معين . وسنبرح
قريباً إلى لبنان . أفأنت ماضٍ إلى هناك
لصيفية .

— قد أمضي .

قالت : احترق فولكان وانتهى أمره
وصار جرة .

فتجسرات وقلت : وأنا قد احترقت
وصرت جرة حب .

قالت : أظنك جرة حبٍّ أوشكت تنطفيء
وازددت جراً وقلت : إذا نفخت فيها
نسمة حياة أذكيتها إذ لم نزل فيها بقية من
حياة الحب غير قليلة .

قالت : أتتوقع مني نسمة حياة أم دمة حب ؟
قلت : منك النسمة ومني الدمة .

قالت : وهل عندك دموع ؟
قلت : أليست لي عينان بعدتين دمعيتين
خملقت فيَّ وقالت : أحقبي أن لك
عينين تدمعان .

قلت : كيف لا ؟ أليست في موكب
المشاق أحمل العلم ؟

قالت : إنك مدينٌ لي بعشر دمعات .
فلماذا لا توفيها إذن ؟

خملقت فيها مندهشاً وقلت : متى كان
هذا وأين ؟

قالت ضاحكة : أتذكر الدين هرباً من
الوفاء . أم أن دمعك غاض ، أو أن غدده جفت ؟
هل بكيت في حياتك ؟

وكنيت أنعم النظر عسى أن أتوسم فيها
سحنة كنت أعرفها فغيرها الزمان . وقلت :
البكاء ليس شيمة الرجال يا سيدتي .

— إذن تصرُّ على عدم إيفاء الدمعات .

— كلا . لا أصر ، وإنما يظهر لي أنك

فإن ابنتي تستبطنني في السيارة ، يجب أن
نلتقي في لبنان .

عدت في ذلك المساء الى منزلي الصغير
أترنح من نشوة لم أستطع تفسيرها . هذه
امرأة كانت عشيرتي في أيام الصبا ، عشرة
جيرة غير قصيرة . كنت أعطي عليها ولم
أدر أنها كانت مدلّسة بي إلا حين قضى
القدر أن ترحل الى أميركا . لم أدر أنها
مدلّسة لأن تربية الحشمة في ذلك الجيل وفي
ذلك العهد كانت تغلق قلبها على سائر حبا .
ولما فوجئت بالفراق انقضّ حتم ذلك القلب
فباحث بذلك الحب .

ذهبت الى أميركا خوّلت البيئة
محجى حياتها . فبدلاً من أن تكون زوجة
يوسف العنابي البدال صارت زوجة
توم ستنفورد ملك المطاط المليونى ، تبذخ
وتترف وتبترأ أكثر من ملكة . وقد
منحها الله بدائع الجمال وروائع الجلال . فما
شأنى بها ، وما مطعمي منها ؟ ولماذا تنصباني
اليوم وهي ذات بعل عظيم الشأن ؟ ألعلى
الحب الجديد لم يطمس الحب القديم ؟ ولماذا
أصبوا إليها وأنا متدحرج الى هاوية الهوان ؟
ويمحي ان هذه المرأة تضرم نار وجدي
من جديد لكي تتلهى بولوعي وتستوفي
حقها من دموعي . لعلها تهيج الغرام بي
لكي تتمكن من الانتقام . لا أستطيع أن

عند ذلك أقبلت الفتاة الصغيرة فعرّفتني
بها قائلة « مس دورا ستنفورد ابنتي » . ثم
عرّفتها بي : — « المستر يوسف العنابي
صديق قديم » اسبقيني الى السيارة يا عزيزتي
فضضت الفتاة وقلت لسامى : ألا تمهلين
هذا الملاك ريثما نتبرك به هنيئة ؟

فقلت : أريد أن تستدرف منها أدماً
كما استدرفت من أمها ، إنها غصن رطيب .
أستحل أن تهصره ؟

فقلت هل يمكن العود الصلب وهو
عند جذع الدوحة أن يقرب من الغصن
النضير في أعلاها يا سيدي . قُطعت اليد
قبل أن تهصره ! لو كنتُ فنناً لدنا وارفاً
لكنت أظلل هذا الغصن النضير بأوراق
لكيلا تلفحه حرارة الشمس : آه . ليت
الشباب يعود .

فقلت : ليتك كنت فنناً . هل تنفع
ليت ؟

فقلت : لقد انقضى عهد نصارتي
يا عزيزتي ولكن عهد نصارتك طال ، فما أغرب
أسرار هذا القدر . بالله كيف عرفتني وخفيت
عني ؟

فضحكت وقالت : عرفت كل شيء
عناك . وأنت لا تدري ، إني هينت ملاكاً
يوماك ويقسط أخبارك .

فقال : أحقيق أنك عرفت بسقوطني
أيضاً .

فقلت مثلك لا يسقط . إسمح لي الآن ،

قلت : لا تصالحين خادمةً يا بنيتي .
وعندي حسن البربري كافٍ لخدمتي . وقد
لا أحتاج له لأنني شاعر بمقدم مرض يقتضي
مضيَّ إلى المستشفى .

قالت : لقد وقفت نفسي أمةً لك مدة
حياتي ، سواء في المستشفى أو بعد عودتك
منه . لأنني لم أعد أطيع الإقامة في بيت كنتَ
فيه كريماً فخرجتَ منه مكلوم النفس . ولم
أرَ ملجأ لي إلا العبودية لك . لم تغمض لي
عين منذ فهمت جيداً ما كان من أمر ذويَّ
لك . فرحماك لا تصدقني .

فقلت : سمعاً يا بنيتي سعاد . لم أبقَ أنا
ذلك الإنسان الذي تعهدينه كريماً . لقد
علمني صديقي الفيلسوف أمس أن الإنسان
حيوان ضارر . فأنا اليوم ذئب أو أفعوان .
فلا تقربي إليَّ

فقالت : لا أستطيع يا سيدي أن تغير
طبعك الكريم لأن معلتي علمتي أمس أن
من شبَّ على خلق شاب عليه .

فقلت : أنت الآن ملاك طاهر ، وما أنا
بقديس ، فلا تجربي شهواتي الحيوانية .
عودي إلى أهلك . وقد غفرت لأخيك
وخالك منذ كنتَ كريماً قبل أن صرت
حيواناً ضارياً .

قالت : لن أعود إلى الجحيم ، لأن الذئب
والأفعوان اللذين تدعيهما صاروا عندي
ملاكي رحمة لي . لقد أخذت من محفظة
خالي وهو نائم هذه الورقة بماية جنيه لكي

أنكر عليها هذا الحق ولا أستطيع أن
أمنعه عنها .

آه . ليت الشباب يعود .

في الصباح التالي تناولت من البريد رسالة
ففضضتها فإذا هي منطوية على حواله منها
بألف جنيه ، وعلى كلمتين مختصرتين أيضاً تقول
فيهما أنها تقدم هذه القيمة الزهيدة إذ لم لي
في حاجة إليها الآن . فلا ينبغي أن أشعر
باحتيال . إلى اللقاء .

فضيت تواء بالحوالة إلى الفندق لكي
أردّها لها فليل لي أنها وبناتها برحمتها إلى
الأقصر . فبعثت بالحوالة إليها مع كلمة شكر
بليغة لفحتها نسمة حب .

وعدت إلى منزلي شاعراً بتوهك فخنحت
إلى سريري على نية أن أتجنّب في اليوم
التالي حضوره المزداد المؤلّم في متجري حيث
يتنهاب التجار بضاعتي استيفاءً لديونهم .

في اليوم التالي ما إن ارتفعت الشمس
عن رآد الضحى حتى دخلت على مخدعي سعاد
بنت صديق الكروي الكبير وهي في
نحو الثالثة عشرة من العمر وارتجت على
سريري عند قدميَّ بأكية بكاء مرّاً . فأجفلت
وقلت : ما ذا بك يا سعاد ؟ هل من خدمة
لكم فأقضيها إن كنتَ أستطيعها ؟

قالت وهي لا تزال تشق : نعم يا سيدي
يوسف . تقبلني خادمة عندك من غير أجر .

فقد ساعته حين أساء . وأما القضاء فلا
يقبل شفاعته .

فقلت وهي لا تزال تجهش : إن ثقتي
العظمى بطيبة قلبك أرسلتني إليك لكي
أرجو منك أن تتدارك سقوط سعاد في يد
القضاء برد ورقة المساية جنبه التي أخذتها
من محفظة خالها وقدمتها لك ، وهي كانت
تظن أن خالها يتسامح ويفض النظر عنها
فاذا هو يهددها باستدعاء الشرطي . فبربك
تكرم بالورقة وخذ بدلها سعاد خادمة لك .
فقلت : لقد رفضت سعاد وورقتها
وطردتها من منزلي الذي أصبح مريض
وحش ضار . فهو دي ياسيدي مطمئنة على
مال أخيك وعرض بنتك . إني مريض الآن
وربما صار مصيري غداً الى المستشفى وبعده
الى قضاء الله .

ومضت المرأة آسفة شاكراً داعية .

أوفي بها بعض مالك علينا من الفضل .

فصحت بها : ويحك : أمال خالك تسرقين ؟
فقلت كلا . بل هذا بعض مالك ، فخذ
واجعلني أنا بعض مالك الآخر .

فقلت : عني يا فتاة . ردي الورقة
لخالك . عودي حالاً . واجئني الى دير اذا
شئت الهرب من جهنم .

ونفضت من سريري وقذفت بها
وبورقتها معها من الباب .

وما هي إلا بعض الساعة حتى دخلت
عليّ عملة أم سعاد وارتقت عند قدمي ناحية
فقلت : لماذا جئتني يا امرأة ؟

قالت : جئت لكي تلطمني بعلك لطمات
متوالية الى أن تقضي عليّ . فقد كنت من
أسباب آلامك .

قلت : أريدن مني أن أسامح نسيماً
ابنك ، وان أتوسل الى القضاء ان يعفو عنه

الفصل الثامن

الملاك الحارس

وأوهمني أنه من بنات أفسكاري . تبساً له من مداعب سميح .

لله من اضغاث الأحلام ما أنقلها في قلاقل المنام .

ثم ضغطت الزر الكهربائي لكي أطفىء المصباح . ولكن الضوء لم يخبُ بتاتاً بل تضاعف حتى صار كأنه نور جبري وطيس . وأجأت نظري في الغرفة لكي أتبين مصدر الضوء الضعيف الذي بقي بعد اطفاء النور الكهربائي . فبدأ لي على الحائط أممي ظل جسم انساني مطموس . فجزعت . ولكن أين الجسم المُنْظَلُ .

تلفت هنا وهناك فلم أر شيئاً . ثم عاد نظري الى الظل فاذا به طيف يتضح رويداً حتى صار مجسماً . فاقشعرّ بدني ووجف قلبي . ماذا عسى أن يكون هذا ؟

ثم تقدم هذا الطيف حتى توسطت الحجرة وظهر على كتفه جناحان وتراءى لي روحاً ملائكياً متجسماً ، فهدأ روحي قليلاً إذ شعرت أنه روح خير . وبقيت صامتاً أنظر فيه وأتبين خلقته الجميلة الى أن قال : هل أنت لي ؟

قلت : من تكون ؟

قال : أنا ملاكك الحارس لك . ألا تعلم أن لكل انسان ملاكاً يحرسه ؟ فان كان الانسان صالحاً كان ملاكاً ملاك خير ، وإلا

انتصف الليل وأنا أتقلب على وثير الفراش ، بل على أشواك الغم . وقد أطبقت على صدري أطواد الهم من الجانبين الى أن صدمتها سنة الكرى فتمت غراراً . ولا أدري متى صحت ، فيما أنا أردديتنا من الشعر إعجاباً به نظمته في حامي ، فرمت ان أكتبه لئلاً أنساه .

الى يمين سريري مكتب صغير عليه ورق وأقلام . فتلمست الورق وقلم الرصاص وجرت أصابعي بالقلم على الورق من غير أن أرى شيئاً . وكتبت بيت الشعر في الظلام معتمداً على ارشاد اليد . وعدت استلقي على الفراش . ورغبت أن أكرّر بيت الشعر فاذا بي قد نسيت . عجبا . كيف أنساه ؟ إذا فعلت حسناً إذ كتبت ، وإلا ضاع في عالم الخيال النسيح فكأنني ما نظمته . أهلي لم أكتب بل توهمت أي كتبت . فددت يدي الى الزر الكهربائي المتصل بالسريبر وضغطته ، فضاء المصباح . وما أغرب ما قرأت فيما كتبت . « ألا ليت الشباب يعود يوماً

لأخبره بما فعل المشيب » فضحكت على نفسي وقهقهت حتى كدت أظن ان في حيرتي من سمعني فاستجني .

لعل عفريت الوهم ضحك على ذقني في غفوة قصيرة ، إذ احتلس من عالم الشعر بيتاً قديماً مشهوراً شائعاً ، ودسّه في مخيلتي ،

فلاك شر .

قلت متسهداً : وهل تراني صالحاً
أستحق الخير وقد تراكت علي الغموم
الجهنمية ، وأوشكت أن أنفجر ؟
— لماذا تنفجر ؟

— ألا ينفجر من خاب في مطامح الحياة ،
وضل في مسالكها ؟ لعل الله ناظم علي .
أ كاد أندفع الى منيتي .

قال : إذن لماذا كنت تردد في أيام
الأمس « ليت الشباب يعود » ؟ كأنك
تريد استئناف الحياة ثانية . فقد رق الباري
الرؤوف لك ، فأوفدي اليك . فهل تريد
استئناف الحياة ثانية حقيقة ؟

قلت : حمداً لربي . نعم كنت أتمنى
استئناف الحياة من جديد ، لكي أصلح
أغلاطي الماضية التي سافقتني الى الثبور الذي
أنا فيه الآن ، عسى أن أعيش عيشة أخرى
راضية سعيدة . ولكنني يئست من هناة
هذا العالم لأنني أراه مفعماً بالشروور والحن ،
وقد أصبحت حياتي كلها جحماً فيه فصرت
أود هجرانه .

قال : الجحيم على الأرض ليس أبدياً
فأما أنك تهلك فيه محترقاً ، أو أن تتمحصر
فيه فتخرج منه طاهراً نقياً .

قلت : أجل . اني هالك لا محالة .
أمسي مسائي الأخير وأنا في حالة افلاس
مجرد لي من كل متاع إلا الشرف . فقد
قال القاضي الذي نظر في قضية افلامي انه

لم ير في تاريخ القضاء تفليسة شريفة
كتفليستي . على أن هذا الشرف الذي يكسوني
لا يستر عاري عن عيون الناس . غداً يباع
متجري بالمزاد العمومي ولا أرى مخبأً
لي من غارة هذا المزد آمن من مخبأ الاتجار

قال : إنك في الطرف الأقصى من الشباب
ولم تتخط الى الكهولة بعد . وما زلت
في عنفوان الجسم السليم وصحة العقل الناضج
أمامك نصف العمر — أطاله الله لك —
فتستطيع أن تظفر بمستقبل سعيد مجيد .
ولا بد أن يكافئك الله على فضائلك .

قلت : أرى المستقبل كالسراب يمشي
سراعاً عني لا إلي . فلا أظني أستطيع لحاقه
والظفر به .

قال : لا تقنط من رحمة الله يا عزيزي
ما دمت رجلاً صالحاً .

قلت : إن صاحبي هذا الذي تنوء به
باسيدي هو الذي اجتذب محنتي الي كما
يجتذب العسل الدباب الخبيث . والا فلعله
صلاح أنت وأنا نخدوعان به ، أو انه ليس
العلاج اللازم لهذا العالم . والأرجح أن
لهذا العالم صلاحاً غير الصلاح الذي أضعفتيه
أمي وغير الذي طبعه أبي في نفسي بقدوته ،
فليتني أهود غلاماً فأجدد سيرتي بالنمط
الأصلح لهذا العالم — ولكن ...

« ليت وهل تنفع شيئاً ليت »

ليت شباباً بوع^(١) فاشترت

(١) كذا ورد عن الشاعر والصواب « بيع »

أو هل تريد أن ترجع خاتمة القرن التاسع عشر بسنيها ولياليها وشموسها وأقمارها ووقائعها؟ أم تريد أن تجعل القادر على كل شيء كل ماضي السكون العظيم مستقبلاً لأجل خاطرك؟ أم هل تريد أن يرجع الله عقرب ساعة السكون الى الوراء ربع قرن؟ أو أن يحو الله صفحة من صفحات سفر الأدهار، أو أن يطويها لكيلا تنشر بتاتاً؟ أو أن ينزع تلك الصفحة منه لأجل «ليتك»؟ أين تريد أن يلقي تلك الصفحة؟ في جيب الفضاء السحيق العميق؟ أم في رحاب العدم اللامتناهي، أم تريد أن يخلط «ورق» السكون في مندمج «الزمان» أي (الزمان المكان) لأجل شواد عينيك ونعومة خديك فقلت مقاطعاً ضارعاً: مهلاً يا سيدي حلماً يا ملاكي الحارس. لا أريد غير ما يريد الله. فلتكن مشيئته تعالى. وإنا أراني أستقبل الصباح، ولست أنا ذلك الرجل الذي يعرفه بعض الناس، بل أنا ولد مجهول. ولم يرني أحد بعد، فلا يعرفني أحد حتى ولا من كان يعرفني. فكأنني جئت من عالم الغيب. كيف أخرج من خدعي وكسائي أصبح يعني مرتين، أو يسع شخصين مثلي.

قال: متى لبسته تراه قد تقلص منك لكي يسعك مرة واحدة.

طغت حيرتي على ذهني. وبعد هنيهة قلت: — اني أراني كالطفل غريب في

قال: ان «ليتك» لنافعة يا عزيزي. فلا مستحيل عند الله القادر الذي يستطيع أن يجعل الماضي مستقبلاً، قم أنت الآن فتى يافع. جدد حياتك واصلح أغلاطك وعش عيشة راضية جزاء صلاحك.

فاضطربت ووثبت في الحال منذعراً ونظرت في المرأة ودهشت إذ رأيت طيفي فيها طيف فتى، لا طيف رجل على باب الكهولة كما عهدتني. لا شاربان، ولا عارضان، ولا بدن ضخم، ولا شعرة بيضاء في رأسي ولا خشونة في إهابي، بل رأيت طيف فتى لم يخضر عارضاه بعد، ولا كنف شارباه. أسيل الخدين، وضياء المقلتين، ساطع الحياء، مشرق الثغر، نحيف القامة لطيف الروح. ارتددت جازعاً.

قال: أليس هذا ما سألته؟

فقلت: في لأي متردداً: — بلى

قال: إن الله سبحانه وتعالى استجاب سؤالك، فهل ندمت؟

قلت: ولا أزال مبهوراً: كلا...

ولكن...

قال: ماذا؟

قلت بعد صمت دقيقة: هل أجد أبي وأمي عاداً الى قيد الحياة، كما كانا معي في حدائتي؟

قال: أنت طلبت الشباب لنفسك، لا عودة أبويك من عالم الأبدية اليك. هل تبتغي أن يعود كل ذلك الزمن الغابر بأشياءه وناسه وأحداثه كما كان حين كنت يافعاً؟

مستقيماً يقظاً . ولكن طيب القلب بلا
سذاجة . وإلا طمع الأشرار في استغلال
سذاجتك .

قلت : سمعاً يا سيدي الملاك ان
ما اكتشفته مما اخترته في هذا العالم هو
أن لا سبيل الى النجاح والسعادة فيه إلا
بالحيلة والخداع والنفاق لاختلاس حقوق
الغير . وأراي لا أستطيع أن أصحح أغلاطي
الماضية إلا بانتهاج هذا النهج ، وإلا فسأعود
الى ارتكابها ثانية . لا أرى الفازين في
الحياة إلا أشراراً . ولا أرى الأفاضل إلا
مخففين . فدعني أخرج من هذا العالم لأنني
لا أريد أن أعيش فيه خائباً .

قال : لك ما تشاء . فأخرج منه إن
كنت لا تريده شاباً جديداً . والسلام عليك
ولم يمهلي ملاكي لسؤال آخر بل تلاشي
ظله وويداً . وفي دقيقة أمضى تماماً . وساد
الظلام في مخدعي .

تراجعت حتى اصطدمت بالسرير
فاستلقيت عليه ذاهلاً مغبولاً . أحلاماً كان
هذا أم حقيقة واقعية . أطفئ هذا في
مخيلتي هزأ بي : هذا حادث خارق للطبيعة فلا
يمكن أن يكون حقيقة . ماهو إلا وهم ، هو حلم
ألم أزل أنا في حلم أم في يقظة الآن .
فاذا طرأ على عقلي حتى خُسِل لي هذا الوهم ؟
ضغظت زر الكهرباء . ضاء المصباح .
فاذا بي أرى نفسي غير ما كنت أعهد .

العالم ، لا أدري كيف أتدبّر . ان العبد
المعتوق من سيده أصلح للحياة مني .

قال : لماذا ؟ معك عمر ١٧ سنة بجميع
مؤهلاتها التي كانت لك في ذلك العمر وأكثر
منها . ومعك فوق ذلك اختبار ربع قرن ،
وإذا شئت فمعك معونة الله . أما كفالك كل
ذلك عدة للجهاد في مضمار الحياة ؟ من في
سنتك له مثل مالك ، هل تنقصك شجاعة ؟
أعطيكها ، ابتدء في الحياة كفتي صحيح
الجسم والعقل والضمير ، وحاذر أن تحيد عن
السرّاط المستقيم . وحاذر أن تخدع كما
خدعت . تنبهك لمساكيد الناس لا ينقض
فضيلتك . احذر أن تدع أحداً يعرف لك
ماضيّاً غير ماضي الصبوة ، وحياة قبل
حياتك الجديدة وإلا فنزول عنك هذه
النعمة . اطلبني عند الضرورة القصوى تجديني .
قل في ضميرك : « ملاكي كاللائل ، إني في حاجة
الى نصيحة منك » . فألبيك . سلام الله عليك .
قلت : مهلاً لي سؤال خطير الشأن .

كيف أستطيع أن أتحايد شرور الأشرار
وأنا دائماً أفرض أن جميع الناس أخیار قبل
أن أختبرهم .

قال : بل يجب أن تفرض أن الناس كلهم
أشرار ، وعليك أن تختبرهم لكي تكتشف
خيارهم . لاتعاملهم كأشرار ، وإلا أسأت
إلى أفاضلهم . عاملهم كلهم كأفاضل وحاذر
منهم كلهم كأشرار . لا تستسلم قبل أن
تتحقق وتؤكد أن لا احتيال عليك . كن

عجباً ! أينمو الانسان الى تحت ؟ أيتقدم
إلى الوراء . أيرجع المستقبل الى الماضي ،
أم يأتي الماضي بعد المستقبل ؟
أكاد أجن . رباه ! أنقذني من هذه
الحيرة .

تقدمت الى الشباك . فتحتة . نظرت
في الفضاء . فاذا الفجر يشق حلك الأفق .
وبلاه . ماذا أفعل ؟ كيف أخرج الى العالم وأنا
غلام صغير والناس يعرفونني رجلاً كبيراً .
الصبح يدنو . يجب أن أفكر فيماذا
أفعل . فتحت خزانتي . أخذت محفظتي .
فتحتها فاذا فيها ورق العملة الذي كنت
أعده فيها . إذن فأخرج قبل أن يظهر
أحد في سلم البناية . ومتى صرت في الشارع
فلا أحد يشقه بي ، لاني أكون كأبي واحد
من الغلمان الذين في سني . ثم أمضي . ثم
يفتقدون يوسف العنابي فلا يجدونه .
يبحثون عنه فلا يعثرون عليه بتاتاً . يزعمون
انه انتحر بسبب افلاسه . طرح نفسه في
النيل أو هام في الصحراء .
وضعت في حقيبتي (شنطتي) ما أحتاج
اليه . وخرجت قبل أن يتضح الصباح ،
قررت أن أروح الى الاسكندرية حيث
لا يعرفني أحد . فذهبت توجاً الى المحطة
فركبت القطار الى الاسكندرية .
نزلت في فندق متوسط الحال . وفيما أنا
أتلظظ الفطور جعلت أفكر فيماذا أفعل ؟

لمست خديّ وسائر وجهي ، فاذا هو أملس
ناعم لا عذار فيه ولا عارض

وجفت . خفت . خفق قلبي بين
ضلوعي ، وتهيّبت أن أقف تجاه المرأة مرة ثانية
وأخيراً ؟ الى متى الخوف والتردد ؟

تشجعت ونزلت عن السرير وتقدمت
متردداً الى المرأة . جزعت إذ رأيتني غلاماً
كما أراي ذلك الشبح نفسي . أرى بعيني
رأسي حقيقة لا وهماً . أحقيق أن ذلك
الملاك فعل بي كما قال ؟ ويحيى ! يمكن هذا ؟
اختلط الأمر في عقلي ؟ فخصت محتويات الغرفة
فاذا هي كما أعدها لم يتغير فيها شيء ! إلا أنا .
وكما حدثت في خيالي في المرأة تذكرت
حوادث صباي التي كدت أنساها على مرور
الزمن . تذكرتها حينئذٍ كما في مازلت غلاماً .
وكاني أنا الآن في ذلك الحين . إذا لم يمزج
الطيف ... الملاك .

ولكني لا أزال أذكر أمسي وأمس
أمسي ومتجري وقضية إفلاسي « واقطار
الدلالة » على بضاعتي غداً ، وأصحابي ومعارفي
وعلائي معهم . فهل أصبحت شخصين ؟
يوسف العنابي الكهل ويوسف العنابي
الغلام ؟ ضربت الحيرة في رأسي . صهرت
دماغي . مزجت بخامي بدمي . أدغمت صباي
بكهولتي . يستحيل أن أكون اثنين . أنا
واحد . ولكنني كنت أمس رجلاً على
باب الكهولة . وفي هذا الصباح أنا غلام
مراهق .

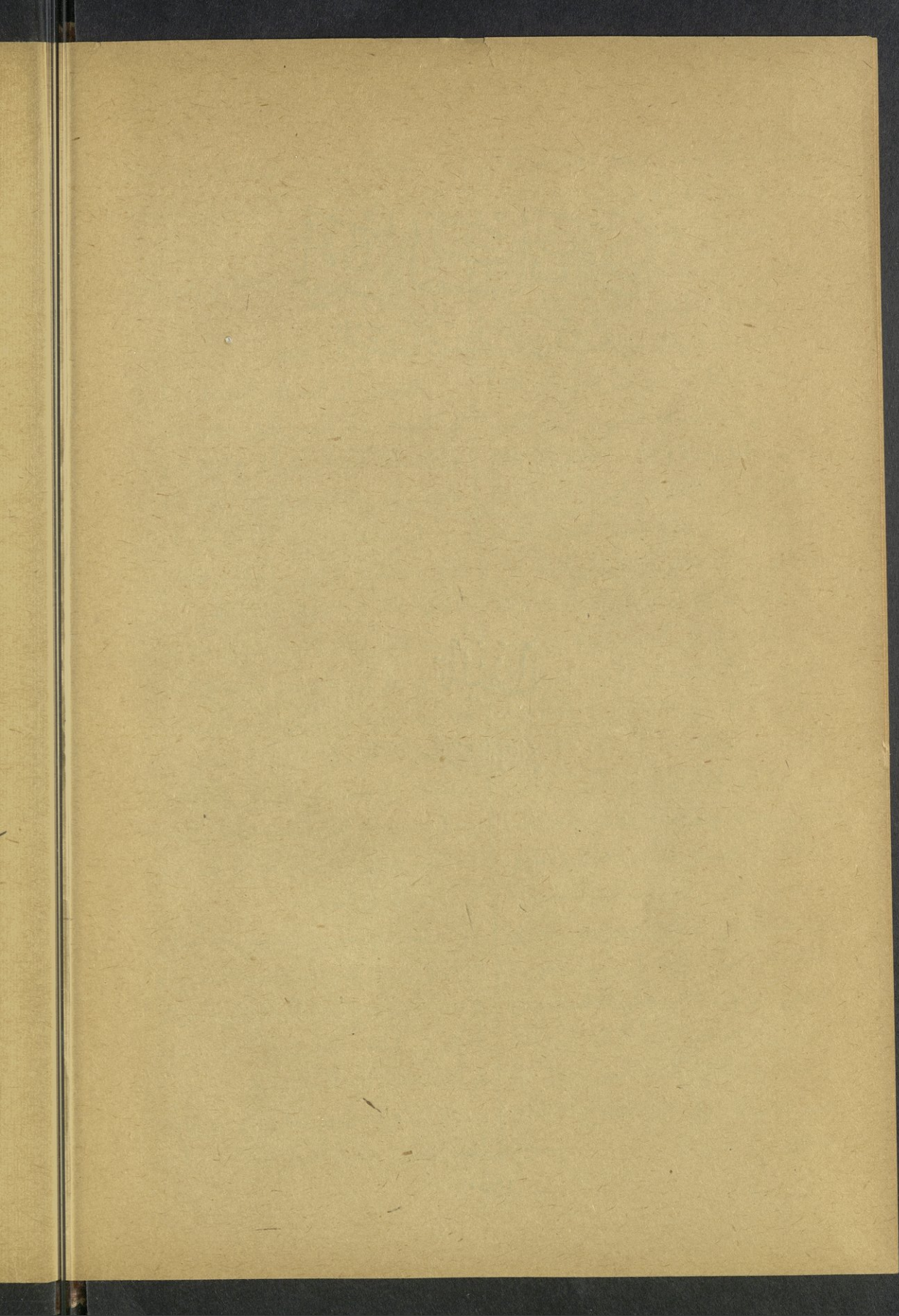
لَيْسَ الشَّيْءُ بِعَوْدٍ
ذَاتِ تَنَانٍ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ

تَأْلِيفُ

فُؤَادِ السَّكَاذِ

مطبعة المقطف والمقطف

١٩٥٠



الفصل التاسع

الحياة الجديدة

أضعه تحت رعايتك . ولا ريب أنك تسرّين به جداً . وتعطفين عليه كأنه ابن لك . وقد زوّدته بالمال اللازم
« أقبلك قبلات أخ مشتاق .

أخوك يوسف العناني

بمئت بهذا الخطاب الذي كذبت فيه على أختي الى لبنان ، وانا شاعر اني انقض عني أحوال الهموم وأثقال المسؤوليات ، أخذت أحس أني فررت من ساحة حرب لا يفرغ الجهاد منها .

شعرت أن ذلك المعجل الذهبي الذي صاغه هرون لبني اسرائيل لا يشبع شهوة ولا يروي غلة . ولكن ليس في هذا العالم موسى يحطمه .

إن الخير الذي بقي على سطح الكرة الأرضية بعد طوفان نوح يشبع عشرين ضعفاً من ملايين سكانها . ولكن ملايين الذهب وملايين نائبه الورق لا تشبع إنساناً واحداً .

لا يستطيع شخص واحد أن يستهلك من خير الأرض أكثر من حاجة إنسان . ولكن إنساناً واحداً يستطيع أن يبتلع كل أموال العالم

يمكن أي إنسان أن يستوفي حاجته من خيرات الأرض بلا قتال . ولكن إنساناً

أختي في بلدتنا في لبنان ترملت منذ سنوات ولا ولد لها ، ولما كنت أكتبها لأنني كنت مطمئناً عليها إذ هي تعيش من ريع أرزاقنا هناك . فبعد تفكير طويل كتبت لها الخطاب التالي .

« أختي العزيزة مريم

« أكتب اليك بعد مقاطعتي لك مدة طويلة . لم أكن ناسياً أياك . وإنما مشاغلي المصنية كانت مسؤولة عن هذا الاهمال . وكنت مطمئناً عليك لأنني واثق بأن ريع أملاكنا يكفيك أن تعيشي في مجبوحة من الخير . والآن وقد بلغ ابني جميل أول الشباب أرسله اليك لكي يقضي بعض الربيع عندك ثم يصطاف . وان شاء فيتم الحول عندك . وقد أكتب له أن يدخل كلية بيروت الاميركية . وإن سنحت الفرصة فأتبعه في أول الصيف .

« وقد تستغربين أني لم أكتب لك عنه قبل الآن . لأنه كان كل الوقت في حضارة جدته أم والدته لأن أمه لم تحكث معي سوى مدة الحمل . وقد أخذها الله الى رحمته في مدة نقاسها . واتذكر اني كتبت لك في ذلك [كذبت لم أكتب لها في هذا . فدعها تتوهم اني كتبت لها]

« وقد ماتت جدته بالامس فرأيت أن

وما لبثت سلمى أن تأهبت للرحيل الى أميركا لكي تضبط تركة زوجها التي تعد بمئات الملايين وترعى أشغاله . وحاولت أن تترك لي التي جينه مساعدة لي على الدراسة لما علمت أي عازم على دخول الكلية . فأبيتها كل الاباءة . فقالت : ان أباك قبلك . فلست أقل شئماً وأنفة منه . وأما دورا فظهر عليها أسف لهذا الفراق بعد العشرة القصيرة التي تمازجت فيها أخلاقنا وميولنا وأمانينا .

عزمت أن أدرس الطب بغية أن أكون ذا مكانة سامية في نظر سلمى وابنتها دورا أصبحت أنظر الى الماضي كأنه حلم عبري ، وان الحقيقة في حياتي هي هذا الحاضر . حقاً اني صرت ارتاب في حياتي الماضية ، ولا سيما لأن ذكرياتي فيها صارت تتراعى لي كالظلال الضعيفة أو كأنها كانت أضغاث أحلام .

بقيت متحيراً في شأن ذاتيتي . أراني شخصيتين في جسم واحد وعقل واحد . صرت أخاف الخبسل من اختلاط هاتين الشخصيتين .

وما كان فراق سلمى ودورا إلا ليحرك في سجية الشعر ويثير في خاطري حاسة النظم . فكنت كلما لاح طيفها في مخيلتي أشبب بهما وأتغزل بجمالهما ، وأبث لواعج غرامي وأتلو شعري على رفاقي ، فيدهشون لما فيه من رقة وطلاوة وحس بيان وسمو معانٍ

واحداً يبتغي أن يقاتل العالم كله لكي يجمع خيرات الأرض كلها في بطنه
وداعاً أيها القطر الذي تهافتت أمم العالم
الجامعة إليه وهي تلتهم دمه ولما ينضب

وصلت الى بلدتنا بصفتي ابن يوسف العنابي أخ عمتي مريم ، واستقبلتني عمتي أختي (بחנוو كحنو الأم) . وانقضت بضعة أيام ، وأنا أتنفس الصعداء ، وأنفث الغم الذي حُشك في صدري في حياتي السابقة . وما لبثت ان سمعت إشاعة وفاة أبي (أنا) يوسف العنابي منتحراً كما قدّرت . فقضيت مع عمتي أيام مناحة أليمة على المرحوم المغفور له والذي (نفسى) .

بعد حين جاءت سلمى الزعفراني وابنتها الى البلدة بعد غياب طويل ، عشرين سنة ونيفاً . ولم يسعني إلا أن أسلم عليها باسم جميل ابن يوسف العنابي . فعزّتي بأبي (أي بي نفسي) وأظهرت عطفاً عظيماً عليّ وما انقضى شهر وأنا أنعم بمعطف سلمى باعتبار أبي (ابن صديقها) ودورا ابنتها حتى ورد لها الخبر المفجع عن وفاة زوجها المستر ستنفورد ، فتفجعتا عليه وبكتهاء بكاء مرّاً لله من القدر المجهول . لما كانت سلمى مقيدة بزواج كان يوسف العنابي حراً يقول بها غراماً ويتدلّه . ولما انحل قيدها وصارت حرة تلاشى يوسف العنابي من الوجود .

عدولي عن دراسة الطب .

وزينت لي تلك الأحوال الخافضة حولي
أن أولف كتاباً في موضوع اجتماعي
أخلاقي جعلت عنوانه : — « سكرات
الحياة ويقظاتها » . وعرضته على بعض
الكتبيين لكي يطبعه أحدهم وينشره
فأعرضوا قائلين : إن سوق الكتب غير
المدرسية كاسدة وألا يزوج في سوقها إلا
الروايات والهزليات . ورضي بعضهم أن
يطبعه من غير أن يدفع ثمناً للتأليف .
فأسفت كل الأسف على بوار العلم والآداب
في الشرق العربي . فرغبت أن أطبعه على
نققي لا اعتقادي أنه سيروج اعتماداً على
شهري . وكنت أظنها شهرة طبقت الخافقين ،
وهي شهرة خيالية لم تتجاوز المقهى الذي
كنت اجتمع فيه مع بعض الزملاء .

لله من الغرور . خلق الإنسان من
تراب ، فهل في التراب غرور ، فنشأ معه في
جبلة ؟ وقال الله داء الغرور .

واستنزف طمع الكتاب من المال
على قلته ما لم تكن لي طاقة على دفعه كله ،
فبقيت مديوناً بقسم منه للمطبعة . وأودعت
نسخاً منه في المكتبات لكي يباع
« بالعمولة » فلم أستطع أن استوفي
من المكتبات إلا المماطلة ، لا الثمن ولا
التمن . فصرت أوفي الدين من ماهيتي .
هكذا كان أجر القلم في سوق الآداب حينئذ .
فند ذلك الحين شرعت نقني بعجني الآداب

وفما كنت أدرس الطب قدمني أحد
رفاقي نعيم الزهيري لقريبه الأستاذ خليل
رامح صاحب جريدة « المصري الحر » في
قاهرة مصر ، إذ كان هذا في بيروت حينئذ
لشاغل له . وهذا امتدح أشعاري ومقالاتي
التي نشرت في بعض الجرائد والمجلات ،
وجعل يزبن لي صناعة القلم . ثم جعل
يرغبني في التحرير في جريدته حتى
استهواني أو سحرني بأسلوبه ومنطقه إلى
أن وافقته . ثم مضيت معه إلى مصر لكي
أكون موظفاً في تحرير جريدته وأترك
دراسة الطب . فكانت أول غلطة غلطتها
في حياتي الثانية وسببها ميل للشعر والآداب
وما انقضت بضعة أشهر حتى ملأت
مركزي الأدبي بل أطففت عليه فوق جمامة .
وفهمت من بعض القراء أن الجريدة ظهرت
بعد انتظامي في سلك تحريرها بثوب قشيب
وأخذت منزلة خاصة في عالم الصحافة .
وكانت بعض الجرائد والمجلات الصغيرة
تتناقل بعض نبذاتي وأشعاري .

وبطبيعة الحال تعارفت وأكثرت الزملاء
من محرري الجرائد الأخرى . وكنا نتجمع
في أحد المقاهي كل مساء حيث نتبادل
الأحاديث والأسمار ونتطرح النكات والملح ،
ومع إني كنت أصغرهم سنّاً (كنت في
الرابعة والعشرين في حياتي الثانية) صارت
لي بينهم منزلة تفوق سني . وقد راق لي
ذلك المعشر جداً . وما أسفت إلا على

تضعف ولا سيما لأن الجرائد لم تبلغ بعد مكانة الجرائد العالمية .

مضى العامان وصارت جريدتنا يومية بعد أن كانت تصدر مرتين في الأسبوع فتضاعف العمل، وبالتالي تضاعف المجهود . ولكن الأستاذ خليل رامح صاحب الجريدة لم يضاعف الأجر حتى ولا زاده أية زيادة . فبقيت ساكتاً عنه اعتماداً على ضميره . ولكن يظهر أن الضائر لا تتحرك إذا لم يحركها محرك . وكنت أخجل أن

ألمح إلى هذا الموضوع . وأخيراً تقدمت إلى الأستاذ خليل رامح بكل رقة واستعطاف ، والتمست منه زيادة ماهية، فأبى أن يزيد بحجة أن إصدار الجريدة ضعفين كلفه من مصاريفها ضعفين عدت في مثل يأس وندمت لأنني عدلت عن دراسة الطب وضيعت بضع سنين من عمري الثاني في التحرير الماحل . آه لو درست الطب لكنت الآن طبيباً حراً وربما نلت توفيقاً كبيراً .

ورد اسم الراوي في هذه الرواية مرة يوسف النعماني وهو يوسف العنابي شخص واحد — فاقضى التنبيه

الفصل العاشر

خيمة ويالها . . .

الخطاب على الأستاذ خليل رامح صاحب الجريدة . فقال : لا تهتم به بتاتاً . ولم يشأ أن أقدمه للنيابة . ولا أدري لماذا هذه الحملة التي يحملها على اليهود .

قال الرحماني : أنا أدري . فهو يبتغي أن يسترضيه اليهود المليون بمبلغ كبير من المال أو باشتراكات كثيرة بالجريدة وباعانات كبيرة بدل سكوت .

قلت : ما ذنبي إذا كان خليل رامح صاحب الجريدة وهو يكتب .

قال : ذنبك أنك تكتب مقالات جميلة في الجريدة تجعل القراء يتهافتون إليها .

وباتساع انتشارها تقوي دعايتها . فقيمة ما يكتبه الأستاذ خليل رامح كدعاية ضد اليهود أو دعاية لهم تتوقف على انتشار الجريدة الذي قلّمك العامل الأول والأفضل فيه ، لذلك أقول لك يجب أن تكون لك حصّة فيما يتقاضاه خليل من اليهود ولك أن تطالب بها فضحكت وقلت : لو كان الأستاذ خليل يرى أن لي حقاً بمقامته مكافأة اليهود لأجاب رجائي يوم توسلت إليه أن يزيدني أجرة لقاء زيادة عملي .

قال : سمعاً يا عزيزي . ان لي اتصالاً ببعض اليهود الذين يتأرون جداً مما تكتبه جريدة المصري الحرّ ضدهم . وهم يتأرون

وكان من حسن حظي أن المنزل الذي كنت أسكن فيه كان ملك تريّ كبير يدعى خليل الرحماني ، وهو يختلف عن سائر الأثرياء بثقافة عالية ، وخصل شريفة ليست إلا في القليل منهم . وما اتصلت به صلة الساكن مع المالك حتى امتدت الصلة بيننا إلى صلة الصديق بالصديق . فكنا نقضي بعض أوقات الفراغ معاً في منزله ، أو في متنزه ، أو في مقهى معتبر . وما لبثت الصداقة أن استحكت بيننا وأصبح كأنه مستشاري الذي أعتمد عليه لما كنت أرى فيه من أصالة الرأي والإخلاص .

في ذات مساء دعاني السيد خليل للسهرة عنده ، وابتدأ الحديث معي بالسؤال : كيف أنت وجريدة المصري الحرّ .

قلت : يلوح لي أي معرّض لخطر جسيم بسببها . فقد ورد لي خطاب اليوم بلا توقيع ينذرني به كاتبه بالقتل إذا كتبت شيئاً ضد اليهود . فاستغربت أن يوجه لي هذا الخطاب ولا يوجهه إلى صاحب الجريدة لأنه المسؤول الوحيد . فهو يكتب وهو ينشر كل أسبوع مقالاً إضافياً عن احتيالات من احتيالات اليهود المالية كالبورصة والتجارة بالسندات بالنسيئة والتقسيط والرّبي والتأمين و « النصيب » إلى غير ذلك . ففرضت هذا

أعطيت راتي مع خطاب إقالة . فسألت عن المكافأة فقبل لي : طالب بها خليل رامح الذي خدمته .

وذهبت الى الاستاذ خليل أشكو له .

فاستشاط وقال : يدفعون المكافأة رغم أنوفهم .

اكتب لهم خطاب تهديد بقضية

بعد أخذ ورد وإحالة بين البائع والشارين

واستشارة محام ضاعت المكافأة ، وما كان

خليل رامح أكرم خلقاً من اليهود . والمحامي

قطع أملي لأنه ليس معي عقد اتفاق ضد

واحد من الطرفين .

عدت بنحني حنين . حبطت آمالي .

خامرني اليأس ، عاتبت خليل رامح عتاباً مرّاً

لأنه أغراني حتى جعلني أترك كلية الطب ،

وأضاع عليّ مستقبلتي كله . فتنصل مني

بمحسنة وبلؤم ، ياله من أناني شرير .

في إبان هذا القنوط قابلني صديقي

الرحماني فرويت له ما حدث بيني وبين خليل

رامح وأصحاب الجريدة الاجداء اليهود .

فقال : ليس خليل رامح رجلاً شريفاً

يستدعيك من كلية الطب ، ثم يخسك حقك .

هذا عمل رجل أناني لئيم .

قلت : إن هذا الرجل كافر لا دين له .

ولا يخاف الله .

قال : أي الله تعني ؟

قلت : الله ؟ وهل للعباد غير الله واحد ؟

قال نعم : هناك الله ذو ثلاثة أقانيم . والله

الآن مؤامرات شيطانية ضدها وضدك

وضد رامح إذا لم يوافقهم هذا على أن يشتروها

لكي يرضوا قلمه وقلمك رضا لا تقوم

لهم تمت قائمة .

فاستغربت أن تحدث المؤامرة وأنا

لا أدري فقلت : ترى كم يدفعون عن الجريدة

قال : عرضوا أربعة آلاف جنيه و خليل

رامح طلب ستة آلاف . وسوف يدفعونها

صاغرين .

قلت : وما رأيك ؟ هل يحسبون قلبي

من ضمن الصفقة

قال : كلاً بل هم يقصدون أن يكسروه

أولاً . فالثن الذي سيقبضه خليل رامح

هو ثمن جميع أقلام الجريدة ، فعليك ان

تطالب خليلاً بمحستك قبل أن يعقد البيع .

قم اذهب إليه الآن .

بعد تردد طويل تجرأت وقصدت الى

خليل في منزله وخطبته في الأمر . فما أنكر

أن اليهود يسامونه . وقال إنه لا يعقد

البيع إلا إذا تمهدوا أن يدفعوا لي مكافأة

حسنة عن مدة خدمتي في الجريدة ، أو أن

يبقوني في وظيفتي بماهية أكثر من ماهيتي

بيعت الجريدة واشتراها اليهود . وقبض

خليل رامح ستة آلاف جنيه ثمناً لها . وبقيت

أحرر في الجريدة ، وقد أضافوا إليها ثلاثة

محررين رئيسهم يهودي . وما لبثت أن شعرت

اني مقيد اليدين لا حرية لي . وفي آخر الشهر

قلت متحمساً: تريد أن تقول إن الإصلاح لا يأتي من الدين أو من التسدين . فأبي حافز إذاً يأتيه الإنسان غير المتدين .

قال المبادئ الأدبية غريزة في الإنسان الاجتماعي ، وهذه الغريزة هي ما نسميه الضمير . فالإنسان الاجتماعي يفهم الحق والصالح سواء كان مؤمناً أو كافراً . ولكن شهواته تطمس الضمير والحق ، فيعمل بمقتضى شهواته لا بمقتضى ضميره

قلت : ماذا تعني بغريزة الإنسان الاجتماعي .

قال : أعني أن هذا الحيوان الانساني لما صار انساناً وشرع يتحضّر صار اجتماعياً متكافلاً . أي صار كيانه متوقفاً على التعاون مع اخوانه وقومه . وهذا التعاون لا يحدث إلا إذا اتفق الاخوان أو القوم على أن يجعلوا الحق أساس تصرفهم . فيعملون فيما بينهم . وينصفون بعضهم بعضاً ، ويصدقون ويكونون أمناء مستقيمين الى غير ذلك من مقتضيات الحق . وعلى تماضي الزمان أصبح هذا التفاهم بينهم ، والتعامل بمقتضا غريزة في خلقهم الاجتماعي . وبالتالي صار شريعة لهم ، حتى اذا خالف أحدهم هذه الشريعة عاقبته الجماعة . اذا اطلعت على عادات قبائل المتوحشين والهمج وتقاليدهم تعلم ان الصدق في المعاملة بينهم عادة فيهم ، وهم لا يعرفون الهاً ولا يدينون بدين الا هذه الشريعة العرفية ، وحرصهم عليها هو الضمير الغريزي

آخر واحد لا شريك له . والله ثالث كان رب الجنود يحارب آلهة أخرى . وهناك آلهة آخر للمجوس والهنود والصينيين وغيرهم . فأبهم هو الله خليل وامح ؟

قلت : أليست هذه الآلهة جميعاً إلهاً واحداً هو الله رب العالمين .

قال : نعم . لو جرد الناس آلهتهم من الخرافات التليدة في عقائدهم لظهرت لهم إلهاً واحداً . ولكن هذه الخرافات هي التي فرقّت الأديان . فأبي دين تعني ؟

قلت : أليست كل الأديان تأمر بالخير وتنهي عن المنكر ؟ هذا الرجل لا يفعل خيراً ، بل يفعل منكراً ، إذا فلا دين له قال : ألا تعرف أناساً ينتمون الى دين ثم يأتون المنكرات .

قلت : بلى . ولكن هؤلاء كاذبون في دعوى التدين بأي دين . فهم بلا دين . قال : أو لا تعرف أحداً من الناس يجاهر بالألحاد ثم يفعل خيراً ، وقلماً يأتي منكراً ؟

ففكرت هنيئة وقلت : أي والله ، أعرف ملحدين لا يكتمون إلحادهم كأنهم لا يريدون أن يغشوا الناس ، وسلوكهم سلوك أهل الصلاح .

قال : إذن فلا تعتمد في اعتقادك بفضائل الناس على ما يبدو لك من تدينهم . ولا تسيء الظن ببعض الناس اعتماداً على ما تعلمه من كفرهم .

والطبيعي فيهم . هذا هو مرادي بالغريزة الاجتماعية .

قلت : ألا ترى انه لا محيص من الدين لكي يقمع الشهوات ويحرك الضمائر ؟

قال : ليس الدين بقماع للشهوات ، ولا هو محرك للضمائر . وإنما تربية الناس منذ الصغر على تلك الشريعة الغريزية التي بسطتها لك هي التي تحيي ضمير ، وتعود المرء أن يقمع شهواته . فإذا كنت تربى الأحداث منذ الصغر على أن الصدق فضيلة تشرف الانسان ، وأن الكذب رذيلة تسفله ، وهي معرفة له ، يشيرون على هذه المبادئ ، ويصعب عليهم جداً أن يحيدوا عنها بعد ذلك إلا بحكم البيئة الاجتماعية الفاسدة . فهم يفهمون بالبداية أن الجماعة لا تعيش بسلام وطمأنينة إلا بالحرص على جميع الفضائل . التربية تفرس الفضيلة في الناس والفضيلة هي الدين الحقيقي قلت : ولكن ألا ترى أن الدين خير وازع للانسان عن الشر ويحمله على عمل الخير ، لأنه يعده بالثواب ، ويتوعده بالعقاب ؟ قال : لو كان الأمر كما تقول لقلست الشرور جداً الى حد الزوال . ولكنها لم تقل ، بل تتسائر لسبيين : أولاً لأن المؤمنين من الناس يتداركون الدينونة

بالتوبة المؤجلة في هذا العالم ، ويطمعون برحمة الله في الآخرة . وثانياً لأن غير المؤمنين لا يمتقدون بالآخرة ولا بثواب وعقاب ، ولا يخافون إلا عقاب الحكومة . إذا الوعد والوعيد لا يزعان الناس عن الشر ، ولا يحملانهم على عمل الخير . وإنما يفعلون خيراً ، ويتجنبون شراً ، بحكم التربية التي توقف فيهم غريزة الصلاح الاجتماعية كما شرحت لك آنفاً . وهي شريعتهم الدينية وهي ضميرهم . وهي الثواب الذي يبتغونه ، والعقاب الذي يحشونه . إذا درست تصرفات الناس جيداً رأيت أن معظم الذين يرتكبون الشرور هم من صنف الذين يصومون طويلاً ويصلون كثيراً . وأن معظم الذين يفعلون الخير ، هم من صنف الذين لا يصومون ، ولا يصلون . وربما كان أكثرهم غير مؤمنين . الفضيلة خلق . والخلق ابن التربية . لك أن تجد شواهد كثيرة على هذا الكلام في الأفراد الذين تعرفهم ، وفي الأمم التي تعرف أموراً كثيرة عنها . فصاحبك راحل ليس فقط انه كافر بلا دين حتى غدر بك ، بل هو غير مربى على الأخلاق الشريفة ، والفضائل السامية . الدين لم يضطره أن ينصفك . ولو كان ذا أخلاق سامية لانصفك .

الفصل الحادي عشر

أوه حلم أم حقيقة يقظة

سعيداً وأنت لا تعلم ماذا يضر مفرق
الخطوط . إن توزيع الخطوط يا عزيزي سر
لا يعلمه إلا موزعها .

واسترسلت في الموضوع بطلاقة وهو
يسمع ساكناً بامتما : أتعقد أن الأرزاق
توزع حسب الاستحقاق ؟ أي استحقاق ؟
الإجتهاد ؟ المؤهلات ؟ الذكاء ؟ الفضل ؟
الفضيلة الخ — أنت تعرف « نعيم البجم » يملك
نصف شارع من الأبنية وريعه منه ثروة
عظيمة . وهو يكاد يكون أمياً ، ولا يعمل
خيراً ، وإنما يطر ويسدخ ويبدد . وإذا
اختبرته نجده دون المعدل الوسط في الذكاء ؟
وعنده كاتب للحسابات محصل للأجور
مثقّف ، يزه ذكاً وأخلاقاً . فهل ترى تقسيم
الرزق عليهما كان عدلاً . وتعرف دافيد
بروخ « المقطع الموصل » ، وقد أثرى من
تعميصات شركات التأمين للحروقات متاجره ،
ومن تفاليسه المصطنعة ، ومن مراباته الفاحشة
ونحو ذلك . وقد تضجّ على مذبج مطامعه
الجهنمية فلان وفلان ممن تعرفهم . فهل هذه
عدالة في تقسيم الأرزاق ؟

وقس على هذا وذاك ألوفاً لا ترى
حظوظهم معادلة لاستحقاقاتهم . فن ذا الذي
يرشدنا الى سر تقسيم الخطوط وقاعدته المثلى
لكي نعلم ماذا يجب أن نفعل لننال حظاً سعيداً .
وأنت تعلم أي عملت صالحاً وفعلت

بعد هذه الخيبة اعتكفت في حجرتي
وجعلت أستعرض ماضي . فرّ في مخيلتي
حلمي القديم ، ونجّلت لي حوادثه كأنها
حقائق . كدت أرتاب فيما أنا فيه . هل أنا
الآن في حقيقة ، أم في حلم . حقيقة كان
ذلك القديم ، أم كان حملاً ؟

قامت في وجداني حياتان لي . أيمكن
أن يكون للإنسان حياتان ؟ . مستحيل لا بد
أن تكون إحداها حقيقة ، والأخرى حملاً .
خفت من دخل في عقلي . كيف أعرف الآن أي
في حلم ، أو في يقظة ؟ وإني في وهم أو في حقيقة ؟
تزعزع وجداني خفت من عارض جنون

بعد بضعة أيام جاءني صديقي خليل
الرحماني الى مقهى كنت أنفرد في زاوية
فيه فقال : ما بالك مقاطعني يا عزيزي جميل .
فقلت متعملاً لا ابتسام : لست أبتغي
مقاطعتك يا أخي ، وإنما أبتغي أن أتحاشي أن
أريك مني وجه اليأس بعد الخيبة التي لحقتني
من جرّاء انفصالي عن الجريدة .

فقهقه قائلاً : كل شيء فيك حميد ، إلا
هذا اليأس الذي تتطوّل فيه . وهل رجل
مستوفٍ جميع المؤهلات ييأس ؟ هلم
يا هذا الى العالم بقلب شديد ، وأمل وطيد ،
فيكيفها تقاسب الدهر على رجل مثلك يمنحه
حظاً سعيداً من الحياة .

فتشجعت وقلت ساخطاً : تقول حظاً

خيراً ثم كوفئت شراً . نرى الجزاء في هذا العالم مكموساً . نرى أناساً يسلكون سلوكاً حسناً وهم فيهم ونصب وشقاء وآخرين يسلكون سلوكاً شريعراً ولكنهم موفقون محظوظون لا لا يا عزيزي خليل . ليس في الأرض ولا فوق الأرض عدالة . لا ينفع العلم ولا الذكاء ، ولا النبوغ ولا الفضيلة ، ولا طيب القلب ، ولا سمو الأخلاق — في الحصول على السعادة . وما أنت بخيراً بين ذكاء مع فقر ، أو جهل مع غنى . قسم لك الذكاء فقيراً كما يجده آخر غنياً . وقسم لك الغنى : فغده جاهلاً أو عالماً . أجل أن تقسيم الحظوظ سرّاً لا يدركه إلا الرزاق علام الغيوب . يمنح من يشاء ويمنع من يشاء ولا تدري ما ذا يمنح وما ذا يمنح . هو سرُّ القضاء والقدر . عفواً يا عزيزي خليل . أنت مستثنى من هذه القاعدة ، قاعدة العدل ، والخيارين الغنى والذكاء والعلم والفقر . أنت صنو سليمان الحكيم . لقد ميزك الرزاق بأن أعطاك الحكمة والمال والأخلاق السامية . فأنت أسعد خلق الله وأمثالك نادرون . أهنتك . فضحك وقال : إن تلك الآلوف من الأموال التي يبدها المرزوقون المسرفون السفهاء يا أستاذ ليست بدل ذكاء وعلم ، وإنما هي ثمن عدل بيع بخساً ، أو ثمن ظلم اشتري غالباً . فما كانت الآلوف في زمن من الأزمان أو مكان من الأماكن لتنال بالبله أو بالعبادة أو بالجهل أو بالخساسة أو بالسفه أو بالكسل

المطلق . وإنما كان ولا يزال كل جنبه ينال بتعب في عمل معادل له . ولكن لم يكن دائماً أن يناله من تعب فيه . فقد يتعب فيه زيد فينال عمره . فالجنبه حصل جزاء عمل مساوٍ له . ولا عبرة في من يملكه . أهو الذي تعب في تحصيله أو الذي اغتصبه منه . فأولئك الكسالى الأخساء ، البله الأشرار ، الذين يملكون الآلوف والملايين لا يملكونها بدل ذكاء مفقود فيهم ، أو بدل علم لم يحصلوا عليه ، أو بدل أخلاق يمنحونها حتى يحق لهم أن يحاسبونا ويقولوا هذا بذاك . وإنما نالوها بفضل خطأ فظيع في نظام المجتمع بسبب الفساد المغفل فيه . نالوها متجمعة من حاصل أتعاب الذين تعبوا في تحصيلها . وأنت تعلم جيداً أنه إذا كان المال جزاء عمل فلا يعقل أن الذي جمع الملايين تعب في حياته في العمل تعباً يساوي تلك الملايين ولا جزءاً زهيداً منها . وإنما نظام المجتمع الفاسد سمح لزيد من الناس أن يستغل تعب عمرو . فالذين يتذمرون من سوء حظوظهم يلقون المسؤولية في توزيع الرزاق على الرزاق أو على القضاء والقدر . وفي الوقت نفسه يبررون فساد النظام الاجتماعي ويرثون منظميه من لؤم قصدهم في التنظيم . فليس الرزاق ولا القدر مسأولين عن هذا الغبن في توزيع الحظوظ والأرزاق ، بل الناس أنفسهم مسؤولون عنه لأنهم لا يزالون ضواري ينهش بعضهم بعضاً . وما كانت هذه

الأنظمة الاجتماعية إلا من أدوات هذا النهش، وأذكاهم أفسدهم خلقاً، وأبرعهم نهشاً قلت : إذاً لا عدالة عند الرزاق في توزيع الذكاء والأخلاق والحظوظ . ما ذنب المرء إذا ولد ناقصاً ذكاً وضعيفاً خلقاً وقليلاً حيلة . لا بدع إذن أن يتفاوت الناس تفاوتاً عظيماً في الغنى والفقر والسعادة والشقاء كما هم متفاوتون في الذكاء والبله ، وفي الأخلاق القويمة والفسادة . فلا بد إذن أن يتفاوتوا في الحظوظ . وفي كسب الأرزاق ، وبالتالي تبقى المسؤولية على الرزاق أو على القدر إذا شئت ، لأنه ليس في طوق المرء أن يولد ذكياً فاضلاً ، أو قاصراً أو شريراً .

فقال : اعلم يا صديقي أن الناس ولدوا متقاربين جداً في الذكاء ، ولا عبرة بالنادر . ولكن البيئة الاجتماعية جعلتهم متفاوتين في الذكاء والأخلاق هذا التفاوت العظيم الذي تراه فيهم . وما ولد شخص إلا ولد معه ذكاء كاف لأن يحصل من الرزق ما يكفيه أن يعيش سعيداً ، كما يعيش جميع سعداء الناس ، اللهم لو كان نظام المجتمع قوياً عادلاً يخوله حق الانتفاع من ذكائه . وإنما هذا النظام الخبيث حرم الوضع حق العلم والمعرفة ، وحق الصحة والعافية ، وحق القوة العقلية والبدنية ، وحق الإيمان واليقين بالعدالة . ثم أذلّه وخبلّه وأظنّسه مولوداً عبداً قاصراً حقيراً ، لا انساناً حراً ، فحدث هذا التفاوت الذي تراه في الأرزاق

والحظوظ . فليس إذن الرزاق ولا القدر مسؤولين عن تقسيم العقول والذكاء بين الأنام . بل الناس أنفسهم مسؤولون عنه لسوء نظامهم . ولو اعتدل النظام وعدل لقلّ جداً التفاوت بين المواليد في ذكاء العقول لأن لهذا النظام الفاسد الأعوج تأثيراً عظيماً في السلالات . ألا تعرف أفراداً من السلالات البشرية المنحطة نبغوا حين أتيح لهم أن يُربّسوا تربية الراقين في قة المدنية ؟ كان هذا نظام العالم ولا يزال هكذا حتى عصرنا الحاضر . ولعلّ تطوّرات المجتمع تغيره أو تعدله أو تنقحه كما كانت تفعل في الماضي . هذا هو نظام العالم الآن ، فعليك أن تسير مع تياره بمقتضى ذكائك وفطنتك ، ولا تستسلم لعقيدة أن الحظوظ مُنح من القدر وإلاّ سحقتك هذا التيار .

إنك مثقف وذكي فلا تعدم مستزقاً سخياً . ولقد عثرتُ على وظيفة لك هي خير ما تعله . ان نديم السماك تاجر الأصواف والأجواخ « بالجملة » رجل طيب القلب جداً . وقد صار مسنناً . وكان له شريك فأنفصل عنه . وهو يحتاج الى مُعين له في متجره . فذكرتك ووصفتك له كما اعتقد فيك . فيود أن تشتغل معه في أول الأمر مستخدماً . فاذا رضي عن عملك بعد الاختبار فقد يشركك معه . والرجل خبير بحنك تستفيد من خبرته كثيراً . وسيكون أجرك من أول يوم حسناً . سر على بركات الله

الفصل الثاني عشر

مكيدة جهنمية

وجرينا عليه بانتظام .

وبعد عام من هذا التدبير توفي السيد نديم عن زوجة وصي قاصر . فاتفقت معها على أن آخذ المحل كله على حسابي وأن أوفيهما المال في مدة أربع سنين . وكان المتجر ، حسناً والنتائج مرضية جداً .

وفي ذات يوم جاءني تاجر أعرفه وقدم لي فتاة باسم لندا حائك وقال : علمت أنك في حاجة الى كاتب قدير يقضي لك أشغلاً مختلفة . فحُفَّتْكَ بهذه الأنسة وهي خير من يقوم بعملك . هي فتاة متعلمة جيداً ، العربية والفرنسية والانكليزية والخط المختزل والكتابة بالآلة الكاتبة . كانت تشتغل في مصرف (بنك) وتقوم بمهام جسام . ولكن المصرف لا يدفع الأجر مساوياً للعمل . جرّبها أسبوعاً ، شهراً ، أشهراً . وعيّن ما هيتهما القدر الذي تشاء ، ونحن واثقون بذمتك .

فنظرت في الفتاة نظرة هفا معها فؤادي .

جمال بارع في ذكاء يشع من ناظرها ، نشاط باد في حركاتها ، سماحة في محيائها ، قوة في فراستها ، وداعة في بسماتها ، ذوق في اناقة هندامها . لا أظنها تتجاوز الثانية

لم تمض بضعة أشهر حتى كان السيد نديم السماك راضياً عني كل الرضى . كنت أضبط الحسابات والقيود واضحة ، وكنت أحسن المراسلات بالعربية وبالانكليزية الى منشستر وغيرها . وكنت أحسن معالجة البيع والشراء . ومحاسنة « الزبائن » ، وكان « الزبائن » يمتدحونني للسيد نديم وبعضهم يحسدونه علي . فتمسك بي ولم يقصر في مكافأتي . وقرب الصيف فاقترح علي أن أذهب الى منشستر لعقد صفقات مع المصانع كما اعتاد هو أن يفعل . فسُررت جداً من هذا الاقتراح ، وأكدت له أنني سأقوم بالواجب خير قيام بإذن الله . وزودني بالتوصيات والمعلومات . وسافرت وقضيت الشغل كما ينتظر وتوفقت جداً .

وعدت من انكلترا بعد شهر ناجحاً . وكان السيد نديم راضياً كل الرضى عن رحلتي ونتائجها ، وأصبح يعتمد علي بجميع أشغال المتجر . ولما كانت صحته وسننه تنذرانه باضطرابه الى التقاعد عن العمل ، اقترح علي أن يشركني في تجارته برأسمال أربعة آلاف جنيه نصفها منه والنصف الآخر يضعه هو ويحسبه ديناً علي بفأظ قانوني على أمل إني أستهلكه تدريجياً من حصتي بالأرباح . فسرّني جداً هذا التدبير

بعد حين شعرت بالوقى والتعب والضعف
لشدة الجهد في العمل . فاستدعت زوجتي
الطبيب الذي تثق به ففحصني وقال : ليس
فيك إلا ضعفٌ عمومي من جراء التعب .
ولا علاج للتعب إلا الراحة . فأوصح لك
أن تغير الجوَّ في أوروبا مدة صيف ، وإلا
فيشتد هذا الضعف ويتحوَّل الى سقم عصبي
قد لا تبرأ منه .

فتمسكت زوجتي بنصيحة الطبيب هذه ،
وألحت عليَّ أن أذهب الى أوروبا لأتنزَّه
وأتنزه الفرصة لزيارة المصانع وعقد طلبات
معي . وتعمدت أنها تتكفل بإدارة المحل
في غيابي كما في حاضر فيه . ووثقت بكفالتها
هذه لما رأيته من مقدرتها . فأنصحت لأخاها .
وقبل أن أسافر طلبت مني توكيلاً
عاماً لكي تستطيع أن تُصرف الأشغال
في غيابي بسهولة ، ولا تجد عقبات وموانع
في سبيلها . فاستصوبت طلبها هذا ، ومن
يكون أخلص للمرء من امرأته التي تبادله
الحب والطاعة . فأُمضيت لها توكيلاً أصطنعته
عند محامٍ تعرفه جيداً . ثم سافرتُ على
بركات الله مطمئناً على عملي كل الاطمئنان .

قضيت في أوروبا ثلاثة أشهر أروَّح
فيها النفس ، وأدرس المصانع والتجار .
وزوجتي كانت تكتب لي من حين الى آخر ان
كل شيء سائر على ما يرام .
ولما اكتفيت من السياحة عدت . فإذ رأيت

والعشرين من العمر . لم أتردد في قبولها . علمت
أنها يتيمة الأب ، وليس لها إلا أمٌ بلا أخوة
ما هو إلا أسبوع حتى برهنت الفتاة
على أنها أكفأ مما قال عنها مقدمها . ومشى
العمل بانتظام ، وحلت الفتاة عندي كما
حلت أنا عند المرحوم نديم السماك ، ونالت
كل الرضى والعطف مني ، والأجر المعادل
لعملها وأزيد .

وما لبثت ان سحرتني هذه الفتاة ليس
بذكائها وحسن عملها فقط ، بل بوداعتها
وطاعتها ورقتها ولطفها وأمانتها واخلاصها ،
الى أن انتهى هذا القرب بالحب . وهل
يمكن أن ينتهي بغيره ؟ والمكان والزمان
يضمانا روحين . فلماذا لا يضمنا جسدان .
ولما شعرت أمها بما بدا بيننا من هوى
عذري ، تدخلت بدهاء اللطف ، وفرضت علينا
الزواج فرض الأم للولدين . فما ترددنا به
وعقدناه .

وعشت مع لندا زوجين متعاشقين
متهنئين مشتركين في العمل متمتعين في الحياة
السعيدة بصفاء تام بلا كدر .

وهذا الحب مع البعد في المكان
والزمان بيني وبين سلمى وديورا أنسانيهما
أو تناسيتهما . ولماذا أفكر بهما وبينني
وبينهما أوقيانوس في المساحة ، وأوقيانوس
في الثراء ، وأوقيانوس في الجاه ، وغاب عن
بصيرتي أن بيني وبينهما بحويِّف قلب فقط .

رأيت السماء أطبقت على الأرض، وجهنم
فتمضت سطح الأرض عنها، ونطحت السماء
بروقها. وأنا مسحوق بين الطبقتين،
محترق بين الروقين، غريق في مصهور
السموات والأرضين.

ماذا أكون غير ذلك وقد وجدتُ
متجري تحت تهديد الإفلاس، والمحتالين
عليّ حامين حولي، يتوقعون القضاء على
مرزقي حتى لا تقوم بعد ذلك لي قائمة —
من هم؟

رأيت حولي شمعون الحائك وعصا بته
نفس الأشخاص الذين طردوني من جريدة
المصري الحر وقد ملكوها. أعملوا معا ولهم
هدم مجارتي وانهاها.

وبلاه أما الذي جاء بهؤلاء إليّ يا لندا؟
ما شأنهم؟ من شمعون هذا؟
قالت: هذا ابن عمي.

فذهلت... هذا ابن عمك؟؟؟ ويحك!
أيهودية أنت؟ وكيف تكللنا في الكنيسة
المسيحية؟

قالت بكل برودة: كان أبي غفر الله له
يهودياً. وأما أمي فمسيحية، وقد ربّنتي
مسيحية.

— وبأي حق ينبغي شمعون ابن عمك
الحجز على مجارتي.

— بصفة كونه مدير الأشغال في شركة
جريدة «المصري الحر»؟

— شركة «المصري الحر»؟

— نعم صارت شركة عظيمة لأنها
أصبحت جريدة تجارية إعلانية بورصية.
وارتفعت أسهمها فنصح لي ابن عمي شمعون
أن أشتري أسهماً منها. فاشتريت قسماً كبيراً
من الأسهم حتى يكون لنا الحق الأول في
مجلس إدارتها وتتولى أنت تديرها. وقد
دفعت قسماً من ثمن الأسهم...

فقلت على الفور... ونزلت قيمة الأسهم
وليس عندك ما يغطي ثمن أسهمك. فحجز
شمعون على تجارتي. أليس الأمر هكذا؟

— نعم مهما نزلت قيمة الأسهم فالجريدة
أفضل من مجارتك لأن أرباحها...

فصحت بها: تبّاً لك من خبيثة
شيطانة. كيف تفعلين هذه الفعلة الشنعاء
يا لثيمة والجريدة لا تساوي شروى نكير.
لقد لعبوا هذه اللعبة وأنت مالتهم لكي
يغتصبوا مالي انتقاماً مني، وأنا لم أسيء إليهم
بشيء فيما كتبه خليل رامج عنهم.

قالت: ألا يعجبك أنني رددت الجريدة
لك وهي عائشة الآن على الاعلانات وعلى
أخبار البورصة والتجارة والأسواق

— تبّاً لك. هل أنا فيلسوف بورصة
يا شقية حتى تهينني لي هذا المنصب. لقد
ضحكوا عليك ولعبوا عليّ دوراً إبليسياً
عن يد تغفلك ولؤمك يا غبية، أم أنت
متواطئة معهم؟ قولي لي. ما هي قرابتك
للطبيب الذي نصح لي بالسفر إلى أوروبا؟

طار عقلي . كدت أجن : — ويحك
يا شقية . لقد سألت عن أسهم الجريدة
فقليل لي انها تساوي فوق الصفر قليلاً
لقد هدمت حياتي هدماً . أين الأسهم
هاتينها لكي أحرقها .

قالت بكل فحة : تحرقها ؟ ألك هي
حتى تحرقها ؟

— لمن اذاً يا لصة ؟

— لي . هي باسمي

فما تمالكت أن لطمتها وصحت :
أخرجني من أمام وجهي يا خبيثة . انك
طالق مني . تكليل الكنيسة لنا باطل غير
قانوني لأنني خُددت بزواجك

— وهل تظن أنني أريد البقاء زوجة
لك بعد هذا السخط ؟ أنا أرفع قضية طلاق
عليك وأطالبك بتعويض ... وخرجت كما
يخرج ابليس عند ذكر اسم الله تعالى .

وقت أبحث في البيت عماذا باعت وماذا
بقي . فلم أجد الا ضروريات السكنى .
ولكنني عثرت في الخزانة على محفظة فيها
مائة جنيه . فاستغربت وأدركت انها حفظتها
لكي تنقذها من التصفية . وظهر أنها نسيت
أن تأخذها حين خرجت . ولا بد أن تعود
لكي تأخذها . إذن أنا في حاجة اليها أكثر
منها . والله لن أدعها تدخل هذا البيت
بتاتا .

تركت تجارتني في يدي السلطة القانونية
يتناهبها الناهبون . لم تبق لي . فلماذا أهتم بها ؟

— هو ابن عم أبي

وماهي قرابة المحامي الذي كتب التوكيل لك

— هو أخو الطبيب

— ويحي ويحي . لقد حبسكت المؤامرة

حبكاً شيطانياً . ألا لعنة الله عليكم جميعاً
من أبالسة .

وقابلت شمعون متهيجاً : ما هذه الفعلة
الخبیثة يا هذا . تغايبونني ثم تكيدون لي
كيد أهل الجحيم .

فقهقه الخبيث وقال : هذا من بعض
أفضالك يا أستاذ .

لله منكم لؤماء . أما اقتنعتم أنه لم يكن
لي حرف في تلك المقالات التي كانت بقلم
خليل رامج ؟

— كان هو يفكر وأنت تحرر . أليس
كذلك يا أستاذ ؟ عد الى تحرير الجريدة غداً .
— تخربون بيتي ثم تستعبدونني أيها
الأشرار . خليل رامج قبض الستة آلاف
وانصرف من أمام وجوهكم الى السودان
وتركني لنقمتمكم يا ملاعين .

— ستلتقي به نقمتنا هناك يا أستاذ

كنت أنكلهم مستشيطاً وهو يتكلهم مقهقهاً

وعدت الى لندن : زوجتي : هاتي ابسطي
لي الحالة الآن ، ماذا لي وماذا علي وما الصافي .

قالت تجارة الأصواف زالت وحل محلها

اسهم شركة « المصري الحر » ألا يمجبك

هذا التحويل

الفصل الثالث عشر

بين النعيم والجحيم

فوجئتُ بها بعد عودتي من أوروبا . وقال
ليس بعيداً أن مسألة زواجك من لندا كانت
مدبرة للوصول الى هذه النتيجة الشريرة .
فتنهبت وقلت : آه . أجل
ما مقامي بأرض نخلة إلا

ك مقام المسيح بين اليهود
آه ليتني أعود الى حياتي الأولى . فقد
كانت أهون مصائب من حياتي الثانية .
لقد أخطأت في هذا الاستبدال

فاستغرب صاحبي قولي هذا وقال : ماذا
تقول ؟ ألك حيتان أولى وثانية ؟

فأمسكت نفسي وقلت : لا . لا . إني
أهذي من شدة فعل الحمى . أرجو منك
أن تسعى بنقلي الى المستشفى اذا رأيت أن
حالي المرضية سيئة .

استدعى الطبيب فقال هذا : انه ليس
في الجسم ما ينذر بخطر مرض عضال . هي
ثورة نفسية عصبية شديدة . وسوف تخمد ،
وأرشدت صديقي الى الماية جنبه التي عندي
في الخزانة لكي ينفق منها علي في المستشفى

ما ان خرج صديقي الرحامي حتى
أدلهمت الحجرة في عيني ، وظهر فيها شبح
نوراني مجنح . فدهشت ثم قلت من هذا ؟
قال . هل نسيتني ؟ ملاكك كالأئيل .

اعتكفت في منزلي لأنني شعرت بحمي
شديدة أحمي مرضي هي ، أم حمي غضب
وغضب ؟ ما كنت أظن أن هذه المخلوقة التي
انقشلتها من اليتيم وأحببتها وأحسنيت إليها
ووثقت بها وسلمتها مالي كما سلمتها قلبي -
ما كنت أظن أنها تخونني هذه الحياة
الشرطانية ، وتتفق مع تلك العصابة الشريرة
المنتقمة مني . لعلها كانت ألوبة بين أيديهم
ولا تدري .

ويلاه : ما أشر الانسان ، وما أمكره
ما رأينا فكراً ثاقباً إلا في الشر .
ولا توسمنا عبقرية إلا في الأذى والضرر ،
ما رأينا نابغة في الصلاح ، وعبقرية في
الفضيلة ، اللهم إلا نوابغ العلم . ولكن
واسفاه ان نوابغ الشر يحولون فوائد العلم
الى الأذى كالحرب ونحوها . فما أشر قلب
هذا الانسان . يا لضياع هذا العقل العجيب
بين أيدي الأخلاق الشريرة . يا لخيبة ذلك
العقل العظيم القدير الذي زين الله به الانسان ،
وجعله دون قليل من الملائكة . ولكن
الانسان كفر بنعمة الله ، وأنزل نفسه دون
الآبالسة .

جاءني صديقي الرحامي لأنني أبلغته أنني
مريض . ودهش لما بسطت له حالي التي

جلس وقال : هذا عالم البشر لا يعيش فيه إلا البشر . أتريد أن يخلق البارئ تعالى عالماً خاصاً بك لا شرور فيه ولا آلام ولا أحزان ؟ إذن أنت لا تطلب ثواباً جزاء صبر، وعناء جهاد . بل تريد أن تكون حجراً أصم لا يعانى، ولا يثاب، ولا يعمل صلاحاً، ولا يجازى على صلاح . فهل تريد أن تتحول الى حجر ؟

فصحت : لا . لا . رحماك دعني في كياني أحس وأشعر .

— أتريد أن تكون نباتاً ؟ فن النباتات ما يحس

— لا . بربك دعني في كياني أحس وأفهم وأعقل .

— إذا تريد أن تكون فيلسوفاً . إذا أنت فيلسوف

— أريد أن أفهم هذا العالم فهماً تاماً وأتدارك شروعه

— إذا فتريد أن تكون بعض إنسـه لكي تفهم بعض أفكار البشر، ونيات الناس ومكايدهم المضرة . هذا الصنف من الخلق خاص بعالم الأملاك، فليس لك فيه نصيب، أنت مخلوق في ملكوت الإنسـان . وهذا الملكوت مخلوق بين عالمين ضدين يتنازعا به : عالم الملائك الأبرار، وعالم الأبالسة الأشرار . ولذلك يجمع الأضداد ، ففيه الخير ، وفيه الشر ، وفيه المسرة ، وفيه الألم ، وفيه الفرح ، وفيه الحزن .

أما ذكرتي منذ برهة قصيرة ؟ سمعتك تتذمر من حياتك الثانية ، وتتمنى حياتك الأولى . هل اكتفيت من الثانية ؟ — الثانية شرٌّ من الأولى يا ملاكي . ملأى من الصائب والشرور .

— بل قل أنها ملأى من الأغلاط أيضاً . لقد تدمرت في حياتك الأولى من كثرة أغلاطك التي جرّت عليك مصائبك، وكنت تزعم أن عذرك فيها جهلك ، وعدم اختبارك . وتعتيت عودة الشباب لكي تعيش حياة جديدة تصحح فيها أغلاطك، لكيلا تقع في مصائبها . ولما كنت رجلاً طيب القلب صالح النفس أجبتنا سؤالك . فقصيت العمر الجديد وأنت ترتكب مثل الأغلاط التي ارتكبتها في حياتك الأولى بأوسع مدى، وأشد فعل، وأسوأ حال . فإذا تريد بعد الآن ؟

هل تريد حياةً ثالثة تصلح فيها أغلاط الثانية، ثم رابعة تصلح فيها أغلاط الثالثة، وهكذا دواليك الى ما لا نهاية له، كأنك تحتال على محدد الأعمار لكي تنال منه أعماراً تستغرق الأبد ؟ أما كفى أنك عشت عمرين، واختبرت العالم اختبارين ؟ . أما اهتديت الى أسباب اخفاقك ، وعلل أغلاطك ؟ هل هي في العالم أم فيك ؟

قلت : تفضل اجلس على الكرسي وأجبنى مرتاحاً . أليس عندكم عالم آخر غير هذا العالم ؟

قلت : أتمنى أن أكون في زاوية من هذا العالم البشري المختلط خيراً وشرّاً : في زاوية حيث يكثر الأخيار والابرار ، لكي أعيش بينهم مرتاحاً من مكاييد الأشرار .

قال : إذن أنت تريد السماء لا الأرض فانتظر قلت : كنت قديماً على أهبة أن أنتحر لكي أخلص من جحيم هذه الأرض فقطعت أنت علي الطريق إلى السماء اذ حلت دون انتحاري قال : ليس الأجل في يدك حتى تقطعه أو تصله كما تشاء . بل هو في يد موزع الآجال . كان يجب أن تبقي في ممالك تجاهد فيه لكي تنال جزاء لك في الآخرة .

— لماذا لا يكون العالم خالياً من الشر ؟
— إذا كان خالياً من الشر فيكون هو والفر دوس سيّين . فلا لزوم لأرض ، ولا لسماء ، ولا لجحيم ولا لنعيم

— لماذا لا يكون الأمر كذلك ؟
— إذا كان الأمر كذلك فتكون الحياة بلا غاية ، ولا لزوم لها ، الأجل بضعة عقود من السنين غير تامة الهداة يحيا الانسان ؟ ان حياة قصيرة كهذه لا تستحق أن يحياها الانسان — لماذا لا يكون تمت نعيم بلا جحيم

— اذا كان نعيم بلا جحيم ، فلا يكون ثواب ، جزاء صلاح لأن النعيم ثواب ، ولا بد من عمل الصلاح للحصول على ثواب . وكيف تشعر بلذة النعيم اذا لم تذق مرارة الجحيم ولو هنيئة . وبضدها تبين الأشياء ، لا يشعر الابرار بهناء نعيمهم ، إذا لم يروا

الأشرار يتعذبون في جحيمهم .
— ولا لزوم لصلاح ، ولا لثواب له ، ولا لشر ، ولا لعقاب له .

— إذا لم يكن صلاح ولا ثواب ، فلا تكون تمت حياة حساسة عاقلة . وحينئذ نعود فنعرض عليك أن تكون جماً لا يحس ولا يعقل .

— بل أود أن أكون إنساناً يحس ويعقل ، وأن تقف أنت الى جانبي حارساً لي من شرور هذا العالم ما دمت أنت ملاكي الحارس كما تدعي . تردني عن عمل الشر إذا أوشكت أن أرتكبه ، وتعضمني عن كل خطاء وإنهم ، وتحفظني من كل أذى . وإلا فما معنى أن تكون ملاكي الحارس ؟

— تعني أنك تتنازل عن حريتك وتسلمني زمام نفسك ، وتجعلني مسئولاً عنك أمام ديانتك . فأني فضل لك تستحق عليه ثواباً . وأي فرق بينك وبين الدودة .

— وهل أنا حر حقيقة ؟
— أنت كما تشعر . ألا تشعر أنك حر ؟
— بلى وأحياناً أشعر اني غير حر

و حينئذ سمعت جرس الباب يطن . فقال قم استقبل زائراً الآن ، ودع حديث الحرية الى حين آخر .

ثم ابتداء الضوء يسدّ ظلماء المكان تدريجاً ، وشرع طيف الملاك يخطي رويداً الى أن عادت الغرفة جليلة لي كما كانت قبلاً . فقامت وفتحت الباب . وما أدهش ما رأيت :

الفصل الرابع عشر

مغنطيسان مصطدمان

يا لغرابة ما رأيت ، دهشت
من أنتِ

— ويك أنسائي ؟ أنسى سلمى ؟

— سلمى الزعفراني . الصديقة القديمة ؟

جعلت أفرك عيني لكي أتحقق هل أنا
في حلم أم في يقظة . في أية حياة أنا الآن ؟
خفت أن تستجني هذه المرأة فخارت الظرف
الذي أنا فيه . قالت : — بل صديقتك
الجديدة سلمى عقيلة ستنفورد .

جعلت أحملي فيها وأجبل نظري إلى أن
فرطت مني كلمة كأنني أكلم نفسي : لعل عدت
إلى حياتي الأولى أو حلم الحب القديم
— حياتك الأولى ؟ هل تهذي ؟

— أجل ذلك الحلم القديم الجميل السعيد

في تلك الحياة القديمة السعيدة . نعم . سلمى سلمى
إن لقاءك في الكونتinentال بعد غياب
طويل رد لي سعادة كنت أفقدها . آه :
ما أجمل حلماً ، وما أسمى . حقاً
لا سعادة حقيقية إلا في الأحلام ، ولا لذة
تامة إلا في الأوهام . أي نعم هاتي لي
سعادتي ياسلمى ، أطيلي حلمي السعيد ياسلمى ،
مددي زمن منامي . أكثرني من أوهامي
السارة ياسلمى .

— سلامة عقلك يا يوسف ، أي حلم

هذا الذي تعني ؟ إنك في يقظة النهار وانتباه
العقل . اصح من غفلة الحمى ، وتذكر حديث
اللقاء في الكونتinentال يا يوسف .

يوسف ؟ همست لنفسي : يوسف ؟ إذا
أنا الآن في حياتي الأولى التي ردت لي لها
الملاك . وما أنا « جميل » في حياتي الثانية .
إذا الثانية هي الحلم وقد تيقظت منه . أو أن
ملاكي رد لي الحياة الأولى لأنني ندمت على
استبدالها . ويلاه أنشوان أنا ؟ أم أنا
مخبول ؟

ثم قلت على مسمع سلمى : إني ياسيدي
في خبل ، في ذهول . تباً لهذه الحمى . أحقيقة
إنك سلمى الزعفراني ؟ أين كنت وكيف
جئت ؟

فقلت : عد إلى رشيدك يا عزيزي .
ما أنت في حلم ، ولا وهم ، أنا سلمى الزعفراني
وقد ودعتني في ميناء بيروت يوم هاجرت
إلى أميركا مع أمي وتركت لك دموع الفراق ،
وهناك وجدنا أي ناهجاً بتجارة المطاط ،
وذا صلة بستانفورد ملك . المطاط . فأحبني
ستانفورد ووضعني في الجامعة لكي أعلم .
ثم تزوجني . ثم عدت إلى الشرق حينئذ إلى
الوطن . وبحث عنك فقبل لي إنك في
القاهرة . وعيشت « مخبراً » يبحث عنك

الباب ففتحته . وما كان أشد دهشتي حين رأيت فريدة الصائغ الحبيبة القديمة التي اجتذبتني في أيام الصبي من سلمى . رأيتهما تدخل وجرى بين الحبيبتين الحديث :

قالت سلمى مُسْنَمَة النظر فيها : ألا تكونين أنت الآنسة التي اعترضت في سبيلي مرّة قبل هذه ؟

ورأيت فريدة تَحْمَلِقُ فيها وقالت : عجبا لا أنذكر أني رأيته قبل الآن لكي أنذكر السبيل الذي احتكرته لنفسك فاعترضت فيه . السبيل كثيرة واسعة للجميع الناس ، فلا أحد يعترض أحداً .

فقالت سلمى : الناس لا يعترضون بعضهم بعضاً لضيق السبيل بل لسبق الوصول . دفعتني في قديم الزمان الى وراء فهل وصلت الى الهدف المؤمل في هذا الامام ؟

ورأيت فريدة تنهّد وهي تقين سلمى وقالت : آه ! ما زلت جاذّة الى الهدف ولما أصل . ألا تكونين السيدة التي سابقتني اليه قديماً ، وقد سبقتي اليه أخيراً . لقد سمعت إنك وصلت الى هدف آخر ممتع . فما بالك تعودين الى الهدف الأول . أطمحين الى الهدفين معاً ؟

فقالت سلمى : وقد سمعتُ إنك طمحت قبلي الى هدف آخر فطمحت قبلي الى هدفين ، فلماذا تستنكرين عليّ هذا الطموح ؟

فقالت فريدة متألمة : لست أنكره يا عزيزتي عليك . وإنما أحسدك عليه . لقد

ويستقصي أخبارك ، الى أن اجتمعنا في الكونتينيّناتال . وكان بيننا من عتاب وذكريات ما كان . وسرعان ما علمت إنك في أزمة افلاس ، فأرسلت اليك حوالة تستعين بها لوقت قصير ، وتحفظ كرامتك ربما تدبر تدبيراً آخر يرد لك مكانتك . معي مال كثير أضع قسماً منه تحت تصرفك . فلماذا رددت الحوالة ؟ أعزة نفس نجاهي ، وترشع عليّ أنا التي أحببتك حباً حمّاً ؟ والحب لا يُسَدُّ يا عزيزي بل يرفع . فارعوا الآن .

— إذن أنا في يقظة الآن . إذن سلمى تتعطف الآن . سلمى تنسى الالمى الذي نالها من اعراضي في عهد الصبا ، وتنسى الدموع التي استدرفها صدي . ما أطيبك يا سلمى . لست أندم على ذلك الاعراض الذي أبكاك يوم الوداع ، فقد أفرحك في زمن الذوى الطويل ، لو استجاب يوسف العنابي رجاءك حينئذ لما نال سقنغورد يدك ، ولما تمتع بجاه سقنغورد وغناه . فاهنتي . إنما أنت جديرة بالهناة والسعادة . وأما أنا فخلّيق بالشقاء والبؤس ، وأخيراً بالفناء المهيّن

— بل أنت جدير بالحياة الطويلة السعيدة ، ولست أنت الذي يتكلم الآن . الحمى تتكلم . يجب أن تنقل الى المستشفى . سأدبر أمر انتقالك اليه عاجلاً . نعم الآن هادئاً .

وما ان نهضت من مقعدها حتى قرع

قلت - جئت لأحد الأمرين ، فأيهما
تشاء .

قلت : لا تستطيعين أن تطفئي الهشيم
الملتهب ، فخيرٌ لك أن تبتعدي عنه إذ لا فائدة
لك من احتراقك فيه ، بعد قليل يصبح
الهشيم رماداً .

قلت : سأطفيء الهشيم وأرده عشباً
نضيراً في مرجة خملية خضراء
قلت : هل تستطيعين أن تحيي العظام
وهي رميم ؟

قلت : الإيمان يستطيع
قلت : هل بقيت عندك حبة خردل منه ؟
قلت عندي ما ينقل الجبل من هذا الى
هناك .

قلت : أين كانت خردلة الإيمان هذه
يوم كنت أغلب الزمان ، وبكاخفي الحدثان ،
وأنا في مسيس الحاجة الى قوة إيمان
قلت : كانت مزروعة ، وأخيراً نبتت
خردلة الحب حرة طاهرة نقية .

قلت : أجل طاهرة نقية ، ثم لفحتها
ريح سموم

قلت : أجل لفحتها ولكنها لم تحرقها ،
فصادت واعتدلت وأثمرت إيماناً قوياً
يشفيك مريضاً ويحييك ميتاً

فتبرمت وقلت : « في الصيف ضيعت
اللبن » يا هذه

قلت : ضيعتُ اللبن ، والآل وجدت
العسل .

نلت الأمنيتين . وأما أنا فخرت المطمئنين ،
أنت تتمتعين بقلبين ، وتعمين بحبين ،
وأنا أشقى بخيبتين ، أفلا تتفضلين أن تتنازلي
عن أصغر نعمائك إنصافاً لي ؟ وتكونين
سيدة الكرماء كما أنك سيدة الكبراء .
- اني أرثي لك يا عزيزتي ، وأخلي
لك الجو لـ لكي تروني ظها قلبك من رحيق
الحب . وانما لا تنكري علي عطفي على هذا
القلب الطيب الذي لو عته كوارث الحدثان
وغير الزمان .

وهنا تقدمت سلمى إلي لكي تصاخي
مودعة ، ودست تحت مخدتي شيئاً لا أدري
ما هو ومضت مسرعة .

ملاك دخل ، وملاك رحل .
تقدمت فريدة وكان باب الفردوس
انفتح وتدفق النعيم الى داري ، ونهضت
في سريري أتبينها .

وحملت في ثمين الترحاب في ابتسامتي ،
والسعرير في خدي ، والنشوة في ترمحي ،
وجست يدي ووضعت مقياس الحرارة
في فمي .

أدركت أن حُمائي تكاد تطلق الزئبق
من طرف مقياس الحرارة ، وقالت : اضطجع
في سريرك يا عزيزي ولا تزعج نفسك .

فاضطجعت ، ولما زعت المقياس من فمي
ونظرت فيه متجهمة قلت : ما الذي دفعك
الى هذا الوطيس الذي ألهب فيه ؟ فهل
جئت لكي تطفئيه ، أو لكي تحترق فيه ؟

— أو ما علمت أنني أفلس؟

— أو ما علمت أنني فديتك؟

— فديتي؟ كيف؟

— وفيت دينك واسترددت تجارتك لك

— وبحك ! لا تدرين ما ذا تفعلين

— أدري أنني ضننتُ بكرامتك

واستنكرت هوانك .

فاستبقيت لك حريتك . لست بعشريتك

بغال ، بل بقلب أن كنت تببيع

— لله منك بارعة في الدهاء ، كما أنت

بارعة في الجبال . كنت أعرف الثاني ، وأجهل

الأول . فأنتى لك هذا ؟ ومن علمك ؟

قالت : علمنيه الأستاذ الأعظم رامي

السهم (إله الحب)

قلت : وهل منحك الأستاذ الدبلوم ؟

قالت : نعم ولكن ينقصه توقيعك عليه

فتبسمت ملء شفتي ، وانعقد لساني .

فقلت ألا تسامح ؟ ألا تصفح ؟

قلت : لك علي فضل عظيم ، فكيف

أحقد ؟

— أي فضل تعني ؟

— لولاك لما درست اللغة الانكليزية

ولا دخلت الكلية ، لولاك لما صرت إنساناً

فأنحت علي وخطفت منها قبلة لأول مرة .

وقالت ، طب نفساً وقر عيناً ، وهون عليك

فستتمتع بالعافية عاجلاً ، إني ذاهبة لكي

أستدعي لك الطبيب ، وسأمرضك بنفسي

نم خرجت وتركنتي ذاهلاً مما قالت :

وفت ديني . أي دين ؟ أدين شمعون ؟ هذا

حلم حديث لا علم لها به . وهي كانت في

حلمي القديم . فهل عنت دين سليم الصافي ؟

فهو حلم قديم ... هل لا أزال في الحلم

القديم ؟ رباه أنقذني من هذا الخبل . ان

عقلي يتقلقل في دماغي . أظنني في بدء جنون

الفصل الخامس عشر

هل ما قدر يكون؟

وظفقت أبكي وهو يؤاسيني الى أن
نمت وتركني ومضى . لا أدري في أي هزيع
من الليل ، وأنا في إبان إغفائي ، شعرت
بقوة تهز جواني ، فإذا بي أرى شبح
ملاكي واقفاً لدى سريري بشكل نوراني
بديع في حلك الليل . جلست في السرير
وقلت : أهلاً يا ملاك الرحمة .

فقال : لقد عدت الى حياتك الأولى ،
ثم ما لبثت إن حسبتها حلمًا . وحسبت الثانية
الحقيقة . وأسفت لصياع ما كان في تلك من
حب لفريدة ، وحب لسمي . فها أنت الآن
على مفرق الطريقين بين الحياتين . فأيتيها
تريد ، وأيتيها تختار ، لتتمة العمر فيها ؟

قلت : كلتاها عندي سيئان . اخفاق
في الحياتين وخيبة في الحين . وإنما أتمنى أن
أفهم شيئاً واحداً . لماذا تطابقت الحياتان ؟
هل لو عشت حياةً ثالثة

فقاطعتني قائلاً : — ستطابق الثالثة
الثانية ، والأولى أيضاً ، وهلم جرا .
قلت : إذن لا فائدة من التجربة
والاختبار . حيث لا حرية في الاختيار .
فكأن ما قدر يكون

— لا شأن للحرية في هذه المطابقة .
قلت : إذن أين السر في هذه المطابقة ؟
قال : السر في جبلتك أولاً . ثم في بيتك

دخل صديقي الرحماني وجسّ نبضي ،
وحسّ حرارتي ، ووضع مقياس الحرارة
في فمي . ثم خصه وقال : لقد هبطت حرارتك
الى الثمانية والثلاثين والنصف ، إذ لم تهبط
غداً الى السبعة والثلاثين فأخذك الى المستشفى .
لقد دفعت للمستشفى عشرة جنيهات عربوناً
لغرفة حسنة ، والأرجح أننا لا نحتاج إليها .
أما التسعون جنيهه الباقية فأردها الى خزانتك
في محفظتها ، إذا تكون غداً في حالة جيدة
إن شاء الله

قلت : ان زيارة فريدة خطيبتني في
حياتي الأولى ألغشتني جداً فتحسنت
حُمائي .

فقال صديقي مجفلاً : خطيبتك في
حياتك الأولى ؟ هل لك حياتان ، أم إنك
عدت الى الهذيان ؟

— وي . وي . معذرة يا عزيزي . أتكلّم
في حلم . فلا يحاسبني على تخريفي . ان الحمى
تريني أشكلاً وألواناً . أظن الأفضل ان
تنقلني الى المستشفى في الحال على كل حال .
فإن بقيت أهذي فأنقلني الى مستشفى الأمراض
العقلية ، لأن دماغي أخذ يهدّم ومراكزه
يختلط بعضها ببعض ، وأليافه جميعاً تندمج
كتلة واحدة . آه يا عزيزي الحميم النصوح
الخلص . فقد ضمضت الحمى عقلي .

فاذا أنا غير حر .

قال : نعم لست حرّاً في إنشاء جبلتك ، إنما هي ارث لك من سلالتك . مزاجك ، طبعك ، خاستك — كل هذه ليست منك ، هي سلسلة من سلالتك ، فليس لك سلطة على إنشائها ، ولكنك حرٌّ في اختيار بيئتك ، ولا سيما بعد أن تخرج من حضانة والديك ، ومصيرك يرجع الى حريتك في هذا الاختيار . قلت : ما دمت لا إرادة لي فيما يتوقف

عليه مصيري ، وهو مزاجي وخليقي حتى بنية جسدي فما أنا حرٌّ ، ولدت قاصر العقل فلا يمكن أن أصير فيلسوفاً مهماً غيرت بيئتي . أو ولدت ذكياً ، فيمكن أن أكون نابغة أينما كانت بيئتي . فاذاً ارادتي جزءاً من جبلتي . فليس لي سلطة عليها ، فما أنا حرٌّ في أن أجعل نفسي ذكياً أو أبله . أعني أن ما يترأى لي من حرية الإرادة ليس إلا وهمّاً أو خداعاً للضمير والوجدان ، هذه حرية مقيدة ، هذه سخافة .

قال : ما قلته الآن هو الحقيقة ، لحرية لك في نشأتك ، ذكياً كنت أو أبله ، عصبي المزاج أو هادئ الخ . وإنما أنت حرٌّ الى حدٍّ في تصرفاتك ، وبقدر هذه الحرية أنت مسؤول ، فلا تتنصّل من مسؤوليتك . في حياتك تطابق في حوادثهما الرئيسة ، لأن مزاجك غالب على ارادتك في تصرفاتك ، فأنت طيب القلب فلا تستطيع أن تكون رديء النفس . لذلك أحسنت الظن بالناس

ثانياً . إذا تشابهت الجبلتان والبيئتان تشابهت النتيجة . إذا تغيّر أحد الجانبين تغيرت النتيجة . نفس الطبيعة والمزاج والأخلاق في نفس البيئة تنتج نتيجة واحدة . وإنما السمكة في الماء سمكة ، وفي البر زحافة ، وفي الهواء طير . فأنت في قلبك على حياتين لم تتغير جبلتك ، ولا تغيرت بيئتك ، فلا يمكن أن تختلف حالتك اختلافاً جوهرياً .

قلت : إذن الطبيعة تلعب في الانسان كما تشاء فلا اختيار له .

قال : ليس للطبيعة مشيئة ولا اختيار ، وإنما هو تفاعل بين مزاج الانسان وأخلاق الطبيعة ، أو إذا شئت فقل بين اخلاق الانسان ومزاج الطبيعة .

قلت : إذن الانسان لا يستطيع أن يغير شيئاً في مصيره . فزاجه والطبيعة يقرران مصيره .

قال : بل يتغير مصير الانسان إذا قضت اوداته أو ظروفه بتغير بيئته . وقد يمكن تغير بعض مزاجه أيضاً بتغير بيئته .

قلت : إذا كان مصيره يتوقف على بيئته فهل للانسان مشيئة في جبلته وبيئته ؟

قال : في جبلته لا مشيئة له . هي قضاء أزلي ، ولا ارادة له في القضاء . وأما بيئته فله حرية في تغييرها ، والانتقال من بيئة الى أخرى ، ومن وسط الى آخر ، ومن معشر الى معشر .

قلت : إذا لم تكن لي مشيئة في جبلتي

في الحياتين فوقعت في حبائل الناس في الحالتين . ولكن الحياتين لم تتطابقا في الحوادث الثانوية لأن حرية ارادتك لعبت فيهما دورين مختلفين فتغيرت النتيجة بعض التغير .

فتضجرت وقلت : ما دام في جبلي عناصر جوهرية كخلقي ، ومزاجي ، وبنية جسدي ولا حرية ارادة لي فيها ، فما أنا مسؤول عن تصرفاتي الثانوية التابعة لسلطان جبلي . وما دام هذا العالم ملائناً من الخير والشر ، رفيه مسالك الى الخير والشر لا تحصى ، فالانسان عرضة للوقوع في الأغلاط والاوزار . وما من أحد مهما كان موفقاً في مزاجه وأخلاقه يستطيع أن ينجو من الوقوع في الخطأ والوزر . إذن ليس من العدل أن يدان ويعاقب . قال : يدان على قدر ما له من الحرية في تصرفاته لا قدر ما له من التوفيق في مزاجه .

الخير والشر

قلت : ولماذا يكون في العالم شر ؟ وكيف نشأ الشر ؟

قال : لا بد من نشوء الشر ، لأن الحركة طبيعية في الأكون ، وسببها قوة التجاذب التي هي طبيعية في الهيولى أصل المادة . وما دام بين أجزاء المادة تجاذب فلا بد من حدوث تصادم أو تفاعل بينها . هذا هو

أصل الشر . ففي العالم الانساني تحرك مستمر لأن فيه قوة الاميال والأهواء ، وبعبارة أخرى قوة الشهوات ، فأفراده وجماعته متجاذبة متنافرة ، وبالتالي متصادمة أيضاً ، فالشر ضربة لازب له ، والتصادم مؤلم ، والالم عقاب . وعلى قدر شدة التصادم أو خفته تكون الدينونة .

قلت : هل للانسان يد في تخفيف التصادم .

قال : نعم لتعقله الذي اختص به دون جميع الكائنات عمل في تحايد التصادم . فهو المسؤول .

قلت : إن التصادم في الطبيعة المادية أو الأخلاقية أو كل تصادم إنما هو خارج عن حركة الفرد . هو حادث كوني عالمي لا يستطيع أي انسان أن يسيطر عليه ، ولا على أقل حركة منه . ولأن لحوادث الكون تدخلا في أعمال الانسان ، فلا ارادة للإنسان فيما يفعله ، بل هو مجبر على فعله ، وإن كان يشعر انه حر ، وما هو بحر . وبالتالي فما هو مسؤول . وحاصل القول اني أود أن أعلم سبب نجاحي أو اخفاقي في الحياة ، هل كان طوع ارادتي ؟ هل هو متوقف على الاجتهاد والسمي ، أو على التوفيق ؟ على أيهما يتوقف ؟ قال : يتوقف على كليهما ، تارة على هذا وأخرى على ذاك ، أنت لا تستطيع أن تمنع القدر إذا أغرق السفينة ببضاعتك ، وانما تستطيع أن تسلم من خسارها ، اذا أمّنت

ثانياً . إذا تشابهت الجبلتان والبيئتان تشابهت النتيجةتان . إذا تغير أحد الجانبين تغيرت النتيجة . نفس الطبيعة والمزاج والأخلاق في نفس البيئة تنتج نتيجة واحدة . وإنما السمكة في الماء ممككة ، وفي البر زحافة ، وفي الهواء طير . فأنت في قلبك على حيائين لم تتغير جبلتك ، ولا تغيرت بيئتك ، فلا يمكن أن تختلف حالتك اختلافاً جوهرياً .

قلت : إذن الطبيعة تلعب في الإنسان كما تشاء فلا اختيار له .

قال : ليس للطبيعة مشيئة ولا اختيار ، وإنما هو تفاعل بين مزاج الإنسان وأخلاق الطبيعة ، أو إذا شئت فقل بين أخلاق الإنسان ومزاج الطبيعة .

قلت : إذن الإنسان لا يستطيع أن يغير شيئاً في مصيره . فزاجه والطبيعة يقرران مصيره .

قال : بل يتغير مصير الإنسان إذا قضت إرادته أو ظروفه بتغير بيئته . وقد يمكن تغير بعض مزاجه أيضاً بتغير بيئته .

قلت : إذا كان مصيره يتوقف على بيئته فهل للإنسان مشيئة في جبلته وبيئته ؟

قال : في جبلته لا مشيئة له . هي قضاء أزمي ، ولا إرادة له في القضاء . وأما بيئته فله حرية في تغييرها ، والانتقال من بيئة إلى أخرى ، ومن وسط إلى آخر ، ومن معشر إلى معشر .

قلت : إذا لم تكن لي مشيئة في جبلتي

فإذا أنا غير حر .

قال : نعم لست حرّاً في إنشاء جبلتك ، إنما هي إرث لك من سلالتك . مزاجك ، طبيعتك ، خاسرك - كل هذه ليست منك ، هي سلسلة من سلالتك ، فليس لك سلطة على إنشائها ، ولكنك حرٌّ في اختيار بيئتك ، ولا سيما بعد أن تخرج من حضنة والديك ، ومصيرك يرجع إلى حريتك في هذا الاختيار قلت : ما دمت لا إرادة لي فيما يتوقف

عليه مصيري ، وهو مزاجي وخلق حتى بنية جسدي فما أنا حرٌّ ، ولدت قاصر العقل فلا يمكن أن أصير فيلسوفاً مهما غيرت بيئتي . أو ولدت ذكياً ، فيمكن أن أكون نابغة أينما كانت بيئتي . فإذا إرادتي جزء من جبلتي . فليس لي سلطة عليها ، فما أنا حرٌّ في أن أجعل نفسي ذكياً أو أبله . أعني أن ما يترأى لي من حرية الإرادة ليس إلا وهماً أو خداعاً للضمير والوجدان ، هذه حرية مقيدة ، هذه سخافة

قال : ما قلته الآن هو الحقيقة ، لا حرية لك في نشأتك ، ذكياً كنت أو أبله ، عصبي المزاج أو هادئ الخ . وإنما أنت حرٌّ إلى حدٍّ في تصرفاتك ، وبقدر هذه الحرية أنت مسؤول ، فلا تتنصّل من مسؤوليتك . في حياتك تطابق في حوادثها الرئيسية ، لأن مزاجك غالب على إرادتك في تصرفاتك ، فأنت طيب القلب فلا تستطيع أن تكون رديء النفس . لذلك أحسنت الظن بالناس

أصل الشر. ففي العالم الانساني تحرك مستمر لأن فيه قوة الاميال والآهواء ، وبعبارة أخرى قوة الشهوات ، فأفراده وجماعته متجاذبة متنافرة ، وبالتالي متصادمة أيضاً ، فالشر ضربة لازب له ، والتصادم مؤلم ، والالم عقاب . وعلى قدر شدة التصادم أو خفته تكون الدينونة .

قلت : هل للانسان يد في تخفيف التصادم .

قال : نعم لتعقله الذي اختص به دون جميع الكائنات عمل في تحايد التصادم . فهو المسؤول .

قلت : إن التصادم في الطبيعة المادية أو الأخلاقية أو كل تصادم إنما هو خارج عن حركة الفرد . هو حادث كوني عالمي لا يستطيع أي انسان أن يسيطر عليه ، ولا على أقل حركة منه . ولأن لحوادث الكون تدخلاً في أعمال الانسان ، فلا ارادة للإنسان فيما يفعله ، بل هو مجبر على فعله ، وإن كان يشعر انه حر ، وما هو بحر . وبالتالي فما هو مسؤول . وحاصل القول اني أود أن أعلم سبب نجاحي أو اخفاقي في الحياة ، هل كان طوع ارادتي ؟ هل هو متوقف على الاجتهاد والسمي ، أو على التوفيق ؟ على أيهما يتوقف ؟ قال : يتوقف على كليهما ، تارة على هذا وأخرى على ذاك ، أنت لا تستطيع أن تمنع القدر اذا أغرق السفينة ببضاعتك ، وانما تستطيع أن تسلم من خسارها ، اذا أمّنت

في الحياتين فوقعت في حبال الناس في الحالتين . ولكن الحياتين لم تتطابقا في الحوادث الثانوية لأن حرية ارادتك لعبت فيهما دورين مختلفين فتغيرت النتيجة بعض التغير .

فتضجرت وقلت : ما دام في جبلي عناصر جوهرية كخلقي ، ومزاجي ، وبنية جسدي ولا حرية ارادة لي فيها ، فما أنا مسؤول عن تصرفاتي الثانوية التابعة لسلطان جبلي . وما دام هذا العالم ملائناً من الخير والشر ، رفيه مسالك الى الخير والشر لا تحصى ، فالانسان عرضة للوقوع في الأغلاط والاوزار . وما من أحد مهما كان موفقاً في مزاجه وأخلاقه يستطيع أن ينجو من الوقوع في الخطأ والوزر . إذن ليس من العدل أن يدان ويعاقب .

قال : يدان على قدر ماله من الحرية في تصرفاته لا قدر ماله من التوفيق في مزاجه .

الخير والشر

قلت : ولماذا يكون في العالم شر ؟ وكيف نشأ الشر ؟

قال : لا بد من نشوء الشر ، لأن الحركة طبيعية في الأكوان ، وسببها قوة التجاذب التي هي طبيعية في الهيولى أصل المادة . وما دام بين أجزاء المادة تجاذب فلا بد من حدوث تصادم أو تفاعل بينها . هذا هو

لكي تكون مرجح النجاح يجب أن تعتمد
على الذكاء في كل حال ، ولا تتوكل على
العوقف . ليس لك يد في القدر ، وإنما لك
حرية في أعمال الفكر والاجتهاد . ولكل
مجتهد نصيب .
— ألف شكر لنعصائحك يا سيدي الملاك
الفيلسوف .

عند ذلك سمع جرس الباب يقرع فقال :
قم استقبل زائراً ، وفي اللحظة نفسها اختفي ،
ورأيت مائع نور الصباح قد جرى في حجرني
فقممت وفتحت الباب ، فإذا بي أشعر بصدمة
ردتني الى الوراء صريعاً

عليها في شركة تأمين ، ولا تستطيع أن تمنع
شح الموسم في فصل القيظ ، ولكنك تتلافى
الحاجة اذا كنت تقتصد ، وتكسر المؤونة
ليوم المحل والقحط ، ولا تستطيع أن تتلافى
الخسارة اذا أنزل القدر الأسعار لطاريء لم
يكن في الحسبان ، ولكنك تتدارك
الافلاس اذا أنعمت النظر في الصكوك قبل
أن توقع عليها ، لكي تتأكد انها لا تحمل
الزور ، او انها مطابقة لما وافقت عليه ،
فاذا كان عندك بضائع حين تشب الحرب كان
ذلك توفيقاً ، وان حدث صلح فجأة ومخزنك
مكتظ بالبضاعة الغالية ، كان ذلك نحساً لك .
فليس لك كائن شأن في أية الحالتين . وإنما

الفصل السادس عشر

شيطان وملاك

- لله من كيدك يا امرأة ، لماذا لم تظهر هذه البراعة منك من قبل ؟ فقد ظهرت لي كالجمامة الوديدة الطاهرة .

- من حسن البراعة أن لا تظهر البراعة إلا في حينها يا عزيزي .

- ولماذا جئت ونحن الآن مطلقان ، وصار بيننا حواجز ؟

وأدارت وجهها الى الخزانة وفتحتها ، ورأيتها تأخذ منها محفظة النقود ، فنهضت لكي أردعها ، ولكن قوتي خائفتي ، وهي ارتدت الى الوراء قائلة : لا زعج نفسك يا عزيزي ، أنت مريض جداً ، وضعيف القلب ، ثم في سريرك ، ولا نجاهد اثلاً يشتد مرضك

وأضجعتني في سريري رغم أنقي وألقتني فيه ، وأنا واهي القوى وقالت : لأجل هذا جئت ، لقد أودعت المحفظة هنا وفيها مائة جنيه . ولكني لا أرى فيها إلا تسعين .

قلت : أجل لقد شعرت بشيء من الشكر لك إذ فصلت لي من تركتي مائة جنيه لك كيلا أضطر أن أسأل لأجل النفقة في المستشفى بعد هذا الخراب

قالت : لا أظنك في حاجة الآن الى أكثر من العشرة التي سرقها من المحفظة . أمّا أنا فأني في حاجة ماسة إليها كلها

هذه صدمة من الصدمات التي قال عنها ملاكي الآن ، رجعت مسرعاً الى سريري مترخاً من صداعي ، ومحترفاً من سعيي الخبيث في بدني ، دخلت عليّ لنداء زوجتي المطلقة ، دخلت بخفة روحها ، وابتسامتها المعتادة ، وقالت : سمعت يا عزيزي أنك مريض . جئت أعودك ، كيف حالك ؟

- حالي كما تشتهين ، ماذا تشتهين ؟ - السلامة والعافية لك يا عزيزي ، أنت رجل طيب القلب جداً ، ولكنك ساذج ، بل مغفل .

- حقاً إني مغفل ، وإلا لما سلمتك ذفني قبل أن أسافر الى أوروبا ، كما سلمتك قلبي بعد أن قبلتك في مكنتي بل أنت كلب تخلص أمين

- أجل أخلصت لك ككلب أمين ، وانقذت لك كحمار يتقدم الى البردعة من تلقاء نفسه متى رآها في يدي صاحبه لكي يضعها على ظهره ، ويقف لديه ويمشطه .

فقهقهت وقالت : تمش يا حماري ، لقد قلت ما كان يجوز في ضميري . أنت حمار ذكي . ولكنك لست بمعنصاً ، ولا « ملحقاً » يا عزيزي ، والا لكنت أمنحك لقب جواد نبيل ، يقف الى جنب فارسه حالما يستوفقه .

ولذلك لا يلتذ بها . وأما الفلوس التي يحصل عليها بالاحتيسال والاختلاس وبغير نصب فهي مقدسة ، يحافظ عليها بكل قوته ويحترنها ويسهر عليها ويحميها ويذوب أسى إذا فقد ذرة منها . عمرك الله هل رأيت ركام الأموال في المطابخ ، أو في خزائن الملابس ، أو في رياض القصور أو المنازل لأجل التمتع والتنعيم ، أم تراها في قلاع المصارف للادخار ولتضخيم الثروات . وهل رأيت المصارف والخزائن والمخازن مكتظة إلا بالمال السحت ؟ وهل رأيت ترفاً إلا بالمال الحرام ؟ وهل رأيت بطراً إلا بالمال المبتز من طبقة المعوزين . وهل رأيت الصدور منتفخة إلا بأوصاب المغارين ؟ وهل رأيت شطف العيش إلا للناس المعانين في العمل الشاق ؟ لولا هؤلاء يا عزيزي لم يكن ثمت بطيرون مترفون . ولولا بذل العاملين عرق القربة لما امتلأت بطون المصارف والخزائن . فالناس يا عزيزي صنفان : صنف يكسح ويشقى ، وصنف يحتال على ذلك ويختلس منه ويتمتع على حسابه . صنف يبذل جهداً فينجح ويسقم ، وصنف يدخر وينتفع ويسمن . فأنت من الصنف الأول يا عزيزي فاشق . وأما أنا فلا أريد أن أكون إلا من الصنف الثاني . فلا تمنني إذا ادّخرت وتمتعنت على حسابك . ومن أقرب إليّ منك لكي أخصه بهذه السخرة ؟ ومن أخضع رقبة منك لكي أثقل كاهله ،

ثم أودعت محفظة النقود في شنتها (حقيبتها)

فقلت : ويحك يا سليطة ، خافي الله يا لصّة . إني مريضٌ وليس معي فلسٌ واحد ، فكيف تتركيني هكذا ولا سند لي ، والمال الذي أخذته هو مالي

قالت : البركة بجمعية الرفق بالحيوان تهتم بك ربّما تدفك في خرابة إذا لم تشف ، فلا تحمل همّاً ، سأتلّقن للجمعية لكي يأتي مندوبها إليك . ثم الآن .

ودفعتني بيدها إذ نهضت ، فوعدت على السرير وأهيا

— لله منك يا قاسية ، لارحمة ولا شفقة ولا عطف يا ظالمة .

— لست تجمد أعطف من فؤادي على الدينار يا غبي ، كلي عواطف للفلوس ، كلي حنو على المال ، تذرف دموعي أسى إذا رأيته يبذل بهوان .

قلت المرء يعطف على ولده لأنه منه وله وقد ربّاه ، ويبذل نفسه لأجله ، وأما أنت فلم تبذلي جهداً أو تعباً لأجل هذه الفلوس ، اختلستها اختلاساً . فلماذا تعطفين عليها ؟

قالت : إن أحبّ مال للإنسان وأهيج لعواطفه هو مال يحصل عليه اختلاساً أو احتيالاً . وأما الفلوس التي يتعب ويشقى في تحصيلها فلا تستحق عنايته ولا حبه . بل تستحق نقمته عليها وكرمه لها . ولهذا ينفقها ابتداءً ، أو يبذلها بحرارة لأجل حاجته

لقد جعلت يا شقية هدف هذا النعيم أبعد
عني من المثل الأعلى ، وأريتني بمظان
التحويل مصير الجحيم أقرب الي من رحم
البركان . تبساً لك لقد صورت لي السكون
مملوءاً شراً يا خبيثة فلم يعد يظهر فيه خير .
كيف يتقدم العالم على أجنحة الشرور
يا شيطانة ؟

قالت ضاحكة هازئة : الخير ؟ هي هي ؟
الشر ؟ قه قه ، الخير والشر يا عزيزي نسباني .
فما هو شرُّ لك هو خيرٌ لي . وما هو خير
لريد هو شر لعمرو . وإذا لم يخسر فلان
فلا تكسب فلانة . وإذا لم تفلس أنت فلا
أثري أنا . وإذا لم يضعف جرجس فلا يسمن
كوهين . وهكذا الدنيا خير وشر ، يتبارزان
في معمران العمران ، أو يتناوبان دورات
الزمان ، كما يتعاقب النيران . فلا تحزن
يا عزيزي إذا رأيت شراً مستغيراً هناءً فإن
هناك خيراً متدفقاً . والمهارة في هذه الحياة
هي أن تجري الى ناحية الخير قبل أن تدهورك
ناحية الشر . اركض الى ناحية الريح ، قبل
أن تهبط في هاوية الخسران . هل أروعيت ؟
— ويحك يا شريرة . هل أروعيت
بهذه التعاليم التي لا تستقيم لافي دنيا ولا
في آخرة . ولا تنفع في نعيم ، ولا في جحيم
— هذه هي تعاليم هذا العالم يا عزيزي ،
هذه شريعة تنازع البقاء الذي هو قسطاس
هذا العالم . فلا تتعب نفسك في تغييرها ،
لقد سبقك كثيرون الى اصلاح العالم ، فما

بهذا الوقر ؟ عسى أن تشفى لكي تعود الى
تبادل الشقاء لك ، والتمتع لي ، والغُرم لك
والغنم لي . نعم يا حبيبي نعم .

فصحت بها في إبان ارتفاع حرارتي ،
وتصاعد الدم الى رأسي : ألا لعنة الله عليك
يا هذه . هل كنت في حاجة الى هذه المحاضرة
الجهنمية منك ؟ ألا ضمير لك ، ألا قلب
حب عندك ؟ ألا عطف روح بعد عشرة
بضع سنين ، يا أفعى ، يا ثعلب ، يا رتيلاء ؟
فقهقهت وقالت : ضمير يا مغفل ؟ أين
الضمائر يا غبي . لقد عسرت في سوق تنازع
البقاء فكسدت وبارت ، وتغفنت وفسدت ،
إن هذه الضمائر التي لا تزال لسداجتك
تؤمّل منها خيراً قد أصبحت بؤرة مراآة ،
وحماة مخادعات ، ومستنقع نفاق . وأما قلوب
الحب التي تتلف اليها فقد أصبحت أوكار
مماذقات . وأما تلك الأرواح التي تنشد
عظما فقد أصبحت أرواح جبن ، أو رياح
أنانية تصفر في أجواف أصنام . فاذا كنت
تموقع نجدة من الضمائر فاطلبها من جوف
الملائكة . أو إذا كنت تنتظر من القلوب
حباً ، فاطلبه ممن تبدل له قلبك لكي يأكله
ويهمضمه ، أو إذا تمنيت اخلاصاً من الأرواح ،
فلا تجرد أخلص مني لك في كشف هذه
الحقائق لبصيرتك بصراحة .

فصحت : ألا تبساً لك . لقد قلبت لي
السكون ظهراً على بطن يا فاجرة ، فأريتني
ججماً أشد عذاباً من عذاب الأرض .

أشكر لطفك وعطفك ، يا سيدي . إني
لهذا جئت .

فالت لندا على دورا وهمت في أخذها
كلاماً لا أعلم ما هو ، فأجابت دورا بكلام
مسموع : كوني مطمئنة لا أدعه يحتاج الى
شيء ، ولا لأحد البتة .

ومضت لندا ، وتقدمت دورا ، وأنا
أشعر أن لهيباً يندلع من وجهي ، وعلى
الرغم من سعيي المحنت قائلة : سلمت
يا عزيزي ، فديتك يا روجي .

— من أين جئت يا ملاكي الطاهر ؟
— من العالم الجديد ، جئنا لزيارة
شرقنا ومشاهدتك .

— لقد حلت البركة ، ولسوف تكون
الخاتمة سعيدة لك ، بعد النعيم السماوي .

— لسوف تشفى وتتمتع برهة هنا وفي
لبنان ان شاء الله . من هذه المرأة الحنون
التي كانت عندك ؟

— هي الأفعى الرقطاء الحنون على حواء ،
هي الحية الخطيئة العطوف على زوجة آدم ،
هي الثعلبية الرواغة الشفوق على آدم ، هي
العسل اللداغ الرؤوف الذي يتسلل بين نسل
آدم ، هي ذئب المال المفترس ، هي ضبع
الفلوس الساطي على فراخ الثروات ، هي كل
أذى ، هي الشيطان الرجيم . ما ذا همست في
أذنك هذه اللعينة ؟

فضحكت دورا وقالت : لا تبال بها
ولا بما قالت . لقد فهمت من وصفك هذا

أعطوا العالم الآن تساليم تزيد تعقيداً ،
وشرائع تزيد آثاماً ، ونواميس تزيد
ذنوباً . ولولا الشريعة لم تكن الخطيئة .
كم نبي ، وكم رسول ، وكم معلم ، وكم مصلح ، ظهر
في هذا العالم ؟ فهل قلت الشرور أم كثرت ؟
هل كانت حروب العصور الغابرة أفظع من
الحروب الحاضرة ؟ وي . وي . كلما تقدمنا
في الزمان ، اشتدت مصائب العمران ، كان
الإنسان في عصر الحمار والبغل والحصان ،
أقل خوفاً من ويالات الحروب منه في عصر
البخار ، والكهرباء ، واللاسلكي ، والطيران .
العالم كما تراه الآن يصلح للإنسان كما جُبل
الإنسان عليه ، فلا تتعب نفسك في اصلاح
العمران ، بل اجتهد في اصلاح طبيعة الإنسان
ان كنت تستطيع ، وإلا فاطلب الخير لنفسك ،
من وراء الشر لغريك ، هذا هو ناموس
النسبية العمرانية الأخلاقية . السلام عليك
والى الملتقى ان بقي عندك ما يجذبني إليك .

وقبل أن تخرج لندا دخلت دورا بنت
سلمى فظننتها ملاكي الحارس : كيف ظهرت
في هذا العالم الثاني ؟

استقبلتها لندا استقبال الأفعى لحواء
وقالت : أهلاً وسهلاً بالملاك السماوي ،
أعلمك رسول خير لهذا المريض المسكين .
انه في حاجة الى العطف الى الشفقة ، الى
المعونة ، الى المال .

فنظرت فيها نظرة ساذجة وقالت :

وجسست يدي ونبضي، فشعرت أن العافية جرت في عروقي، ودبت في بدني ثم قالت: أظن الحمى منخفضة، والأفضل أن ننقلك إلى المستشفى، سألهم بالأمس ودست شيئاً تحت المائدة ومضت على وعد العودة

ما ان خرج هذا الملاك الطاهر، حتى دخلت لندا الشيطان الرجيم، وقالت مبتسمة بسمة الثعلب: لا ريب أنك أحسن حالاً الآن يا عزيزي، وقد قاربت الشفاء. وكالقرد الخاطف دسّت يدها تحت المائدة واختطفقت الفلوس التي وضعتها دوراً قبل أن تخرج. وقالت: بكم تقضيت حببتك التي كنت تكتم خبرها عني؟ خمسمائة جنيه فقط؟ هذا هو ثمنك الذي دفعته منك؟ لست أبيعك بأقل من خمسة آلاف. قل لها إنك أغلى من هذا جداً.

وكانت قوتي واهية فلم أستطع أن أقاومها، فقلت لعنة الله عليك من ابليس رجيم. ألا تخافين الله يا شيطانة، ألا ترهبين نقمة الله القدير يا كافرة؟

فقهقهت ورفعت يدها بالفلوس التي اختطفتها وقالت: هذا هو الإله الذي أخاف، هذا هو الإله الذي أعبد، هذا هو الإله العظيم الذي أحفظه في قدس أقداس خزائي، هذا هو اللوحان الحجريان اللذان كتب الله فيهما بأصبعه

لها ما هي، لن يكون لها بعد الآن يد في شؤونك، غداً تعود لك تجارتك، طب نفساً وقر عيناً. — من أي سماء هبطت؟ ومن أي عالم ملائكي قدمت يا جنة فؤادي؟ متى جئت؟

— جئت مع أمي منذ شهر، وسنتظر إلى أن تشفى، ونم نرح جميعاً إلى لبنان لقضاء الصيف هناك.

— أتعنين يا دورا، إنك تجددين لي حياة أخرى، أراك قد أصبحت عبلة مملوءة البدن، وازددت نضارة وملاحة. فيا الغبطة من يستحق عطفك ورضاك.

— ليس غيرك أحد يستحقهما إن كانا شيئاً ذا قيمة.

— آه لا أراي شيئاً ذا قيمة يا عزيزتي: المال فقدته، الصحة ساءت، العقل تضعضع، حتى السمعة تلوث. لم يعد في شيء مما يحبب بي يا دورا، فعلى م تضيفين قيمة شبابك وهناءة مستقبلك في جيفة تسكلم؟

— صه: لا تقل هذا. ضاع كل شيء، ولكن الشرف باقٍ إلى الأبد، وسقم الجسد، ولكن طيبة القلب سليمة. والفكر تزلزل، ولكن الجوهر حي خالد. سوف تتعافى وتبني الجسد والعقل والسمعة والمقام، بناءً أتمخج مما كان. شد حيلك واعتصم بطولك. كيف تشمر الآن؟ ألسنت أحسن حالاً.

كل هذا المال يقف فوق رأسك يرثيك
لأنك اعتصمت به، وهو لا حول له ولا طول،
تنادينه فيهزأ بك، تستغيث به فيسخر من
عبادتك له، أن ربيع سرورك لقصير، ولكن
خريف عذابك طويل

— فقالت يرود: ان إلهي الذهبي
الحنون، يحميني من الشيخوخة والهرم،
ويشفي من المرض، وينقذني من الألم. ان
إلهي المحبوب، يجعل أيامي الطويلة كلها
ربيع هناءة وسرور.

— والموت يا نعمة؟ هل نسيت عزرائيل
— لا. لم أنس عزرائيل. ألقمه بعض
مالي، فيعف عن روحي. لن أموت.
— والقبر يا مغرورة؟ ماذا تلقمينه متى
أقبل عليك فاغراً فاه؟

— ألقمه تابوتاً من ذهب، مرصع
بالحجارة الكريمة.

— والدود يا مسكينة؟ جائع الى اللحم
النتن، ولا يعيش إلا فيه.

— أدفعه بالحنوط يا فيلسوف.

— إذن أنت وإلهك من التراب، والى
التراب تعودان. وفي الآخرة متى وقفت أمام
الديان ماذا تقولين؟

— الآخرة قبل القبر يا جاهل. لا بعده،
الثواب والعقاب قبل الموت يا غبي، الثواب
لي والعقاب لك.

— أنتنظرين ثواباً يا فاجرة. أي مبرة
فعلت؟

وصايا العشر، ووضعهما موسى في تابوت
المهد. الى اللقاء يا عزيزي، سأعود لكي
أقبض بقية ثمنك أيها العزيز الغالي. قل
لحبيبتك أنها لن تظفر بك بأقل من خمسة
آلاف جنيه. لن أدعها تنهأ يوماً بك إلا
بالخمس آلاف.

فسخطت بها: تباً لك يا لعينة، كيف
تطيب نفسك يا خبيثة وأنت وصلصال التراب
سيان. ان هذا المال الذي تنهينيه
وتدخرينه لا يفدي نفسك في الآخرة يا شقية
فقهرت وقالت: لا زلت جحشاً ساذجاً،
ليت لك كلب دكي، فلعلك تفهم أن نعيم الحياة
إنما هو في هذه الدنيا، وان للآخرة الموهومة
طريقاً غير طريق النعيم الدنيوي يسير فيه
القاصدون الى تلك الآخرة. وهو مملوء
أشواكاً وعثرات وحشرات ونكبات، فلك
أن تسير فيه حتى متى وصلت الى باب الآخرة
ورأيت مقللاً تعود الي فأعطيك مفتاحه.
أشتري لك مفتاحه ببضعة فلوس يا غبي.

— ويحك يا نعمة. اذا كنت لا تؤمنين
بالآخرة، أفلا تؤمنين بالشيخوخة والهرم
والعجز والموت.

— اله المال العظيم يساعدني ويقوي
حينئذ يا جاهل.

— خست، اله المال لا يستطيع أن يرد
عنك عذاب المرض وممل العجز، لا يشفيك
من الداء العضال والضجر الطويل. حينئذ
يطلبين الراحة في الموت فلا تجدنها، يا بهيمة

— لا ريب أن ديانتي مُسَيِّدٌ لي ثواباً عظيماً يا عزيزي، لأنني عبدته عبادة صادقة في قدس أقداس هيكله .

— في أي هيكل عبدته يا شقية :

— في هيكل البنك حيث تكدّس قرايين الأموال . فهو يثيبي النعيم في آخر الحياة ، لأنني مجّده ، وسبّحت له وقدّست اسمه .

— تمجدينه بالشهوات الجسدية ، ثم تنتظرين منه نعيماً ؟ لقد غفلت عن نعيم الروح في العالم الثاني .

— تقول الروح ؟ حتماً إنك مغفل ، دع نعيم الروح الخيالية لك ، ودع لي نعيم الشهوات الجسدية . إن السهي قد ضمن لي كل مسرة جسدية حتى الدقيقة الأخيرة من الحياة ، وسينصب لي تمثالاً من ذهب يُكْتَسَبُ تحته « القديسة لندا »

— عني يا لعينة ، إلى هيكل خبثك ودعارتك ، والفظي روحك إلى صقر وبئس المقرّ .

تركتني الشيطانة ، والحى تشويني شيئاً ودمائي تغلي وتفور ، ودمائي يتمدد ويتقلص ، ومخيلتي كالسينما تستعرض الصور المعقولة وغير المعقولة ، إلى أن ضقت ذرعاً وقلت : إلهي ارحمني ، ربي ارف بي ، ملاكي الحارس خذ بيدي .

وإذا ملاكي منتصب أمام عيني يقول :

ليبك . ماذا تريد ؟

قلت : أود أن أعلم . هل أنا في نقطة الآن أم في منام ؟

قال تكون فيما تشاء . إن شئت مناماً فأنت في أضغاث أحلام ، أو يقظة فأنت في حقيقة بلا أو هام .

قلت : منذ هتية ، كانت عندي زوجتي الخبيثة في حياتي الثانية ، فهل أبقى في حياتي الثانية أو أعود إلى الأولى ؟

قال : هذا أمر يخصك وحدك ولك وحدك الخيار فيه .

قلت : ألت لندا عليّ دروساً زعزعت وجداني ورجّست ضميري ورأيت فيها أن الذين يفعلون حسناً في هذه الدنيا يشقون ، والذين يفعلون شراً ينجحون ويهنأون . أليس هذا هو الواقع ؟

— بلى هو الواقع الغالب .

— إذن ما سبب هذا الجزاء المعكوس في هذه الدنيا ، النعيم للأشرار ، والجحيم للأبرار ؟

فقال مقهقهاً : سببه أنتم أيها البشر المتحذلقون . سببه نظامكم الذي جعل المال سيّداً لكم ، واشباعاً لمطامعكم ، لولا هذا المال الذي ألهمتموه وعبدتموه لما كان من لزوم لوصايا الله المشر . هذا المال هو سبب الشرور لأجل الحصول عليه ، وبسببه تكذبون وتسرقون وتقتلون وتزنون وتشهدون زوراً وتهبون بعضهم بعضاً ، به

عنه الاخلاق .

قلت : إذا كانت الاخلاق تسبب لي شقاء فلماذا اعتصم بها ؟ لماذا لا أنهب مع الناهيين ، واغتصب مع المغتصبين ، وأظلم مع الظالمين ؟ إن بعض الناس استطاعوا أن يبتزوا أموال آخرين . فهم يتمتعون بمال السحت ويتنعمون بمال الحرام ، ولا يستطيع القانون أن يردعهم ولا منفذ القانون أن يعاقبهم ، مع أنهم أضعف بدنًا ، أو أصغر عقلًا من الذين ابتزوا أموالهم ، بل هم أشرف قلبًا ، وأوسع حيلة . وزوجتي كانت منهم ، وخير قدوة لهم .

قال : إن العالم الذي لا احترام فيه للقوانين آثِل إلى الفوضى والدمار . فأنت حرٌّ أن تعيش تحت جناح النظام والقانون ، أو في عالم الفوضى ، أو أن تنتحر حين تخرج من تحت سلطة القانون ، ولا تجد حامياً آخر لك .

ثم تلاشى ملاكي في عالم الغيب ، وتلاشى معه وجدائي ، فلم أعد أعني لالحياة الأولى ولا الثانية .

تستعجلون الجحيم ، فأسرع الجحيم إليكم على الأرض . انبذوا المال وعيشوا بالعمل فتنتني الجرائم ، وينقرض الشقاء ، وتعم السعادة .

قلت : إذا كنت لا أستطيع أن أقلب هذا النظام ، فلماذا لا أحذو حذو الأشرار ، لكي أتمتع كما يتمتعون ؟

قال : تعني أنك تريد أن تعيش فوق الشريعة والقانون ، وغيرك يعيش تحت سلطتهما لكي تستغل نفسك احترام غيرك للحق . تريد أن تطلق العنان لسنة تنازع البقاء .

قلت : لا بأس في ذلك إذا كنت أفوز باللذة .

قال : إذا كنت ضعيفاً تجاه قوتي فخرمك القوي تمتعك ، فبمن تلوذ وبمن تحتجى وإلى من تلتجى ، لكي تدرأ شره عنك ؟ لا ملاذ لك إلا القانون ، ومنفذ القانون .

فلا غنى عنهما لردع القوي عن الضعيف

قلت : وإذا كان منفذ القانون نفسه هضاماً للحقوق ، فإذا يفعل القانون وهو بلا حول ولا طول ؟

قال : تبقى المسؤولية على عالمك لأنه نفذ

الفصل السابع عشر

أيقظة أم منام ؟

الى مستشفى الأمراض العقلية إذا بقيت
تهذي وتخلط في الكلام. أنت الآن تدخل
في دور النقاها . فارباً بنفسك .
وخرجت مقفلة الباب فقلت : رحماك
ربي . عطفك ملاكي .

وما أن تفوهت حتى انتصب أمامي
ملاكي، فاذا هو الآن مهوب الروعة، جليل
السحنة . وقال هل ارعويت ؟
قلت : اكتنفني الحيرة يا سيدي، إني
في بلبال دائم ، لم يبق لي مطعم في هذه
الحياة المرأة .

— تعني الحياة الثانية التي طلبتها ، أم
الأولى التي مقمتها .
— كل منهما أمر من الأخرى . أود
أن أخلص من تداولهما إياي .

— هل صح عزمك على الرحيل الى
الآبدية ؟
— أظن هناك حياة هادئة . أليس
كذلك ؟

— تتوقف على يقينك وهدوء نفسك .
لا أضمن لك شيئاً هناك .

— هل يوجد مصير آخر غير تلك الآبدية
— لا يمكنني أن أفيدك شيئاً بهذا الصدد،

الانسان بلا وجدان جسم يتحرك ،
لاعقل ولا روح . الدودة أنبه منه ، الدودة
تعرف طريقها وتقصد الى طعامها وتتعايد
مها لكها . أما الجسم المتحرك بلا عقل
فلا يأمن الوقوع في التهلكة .

لا أدري كم يوم مر علي وأنا أغبي
من دودة . أدري أنني تنهت إذ الممرضة
تخزني بآبرة آلمتني قليلاً . نظرت فيها
فألعمشتني ابتسامتها . وقلت : أفي يقظة
أنا أم في حلم ؟

فقلت : وي . وي . أعدت الى حديث
اليقظة والحلم ؟

قلت : أجل اني في شك من وجودي
الآن . أصبح أنا إذ أراك فتاة لطيفة حنوناً،
أم أنت خيال في خيالي حتى إذا صحوت
لا أعود أراك

فقهقهت وقالت : أنا كما ترى . لقد
هبطت حمامك وشقيست من سرسامك،
وصحوت من هذيانك ، وقلت هذرتك
فاطمين .

— ترى في أي الحياتين أنا الآن، الأولى ؟
أم الثانية ؟

قلت : هل عدت تخرف وتهرف .
حاذر فقد سمعت أمس همساً بأنهم سينقلونك

ليس في طوق عقلك أن يفهم شيئاً مما هو وراء هذا العالم قبل أن تخرج منه ، متى خرجت من هنا تعلم ما هناك .

— إذن ما وراء هذا العالم مجهول ، أفلا يجزع الانسان من المضي الى المجهول ؟ — إذن ، تخاف أن ترحل من هذا العالم الوقي الى العالم الأبدي .

— إذا كنت قد مللت هذا العالم الزمني الذي له نهاية ، أفلا أجزع من العالم الأبدي الذي لا نهاية له ؟ الله ما أربح الأبد الممل . ألا يمكن أن نعلم : ماذا بعد الأبد ؟ — ليس للأبد بعد .

— أحقيق أن في الأبد نعيماً . — خذ نعيمك معك من هنا إذا شئت — إذن كان لي نعيم هنا فلا بق هنا إذن .

— هنا نعيمك ينقضي ، وهناك لا يزول إن استطعت أن تصحبه معك . — في الأمر شك إذن ؟ — نعم الأمر أمرك .

— أظنه خير لي أن أبقى هنا أتمتع بنعيمي لاني أخاف من رهبة العالم المجهول ، ولا أضمن أني آخذ معي نعيماً من هنا الى هنالك .

— منذ هنيهة كنت تقول : انك تود ان تتخلص من الحياة هنا ، فاذا بك تعدل عن التخلص منها .

— النفس عزيزة يا سيدي . الحياة

محبوبة يا مولاي .

— منذ هنيهة كنت تقول انها مرّة ، فهل عدت تستلذها ؟

— أو مل أن أجد حلاوة فيما بقي منها — حسن اذا تعتمد على الأمل .

— آ . ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

— وإذن تكتفي بلذة الأمل الى أن ينقضي العمر .

— ويلاه ! ألا يمكن تحقيق أمل قبل انقضاء العمر ؟

— هذا يتوقف عليك . فقد نلت من الحياة صمرين واختباوين . فاذا لم تستفد منهما في تحقيق آمالك ، فإخفاقك يكون ذنبين تعاقب عليهما عقابين . — أحق هذا ؟

— وهبك نجحت وهنئت أحق أن تكافأ بثوابين ؟ لقد عشت حياتين ، ولكل حياة ثوابها وعقابها .

— إني قانع بحياة واحدة ، فأيهما تمنحني لتمتة العمر ؟

— أنت تختار لا أنا ، ولك ان تتقلب بين الحياتين كما تشاء .

— لا . لا . رحماك . ان هذا التقلب أقض مضجعي .

— عجباً : من يحصل على هذا الخيار غيرك — ان يعيش الانسان حياتين يتنقل بينهما بمطلق حريته ؟

ونلاشى من أمام عيني فيما أنا استغيث به

يقول الكاتب : وقد عدته غير مرة في
مستشفى الأمراض العقلية ، وكان كل مرة
يسألني أفي حلم أنا الآن ، أم في يقظة ؟
فأوعزت الى الطبيب أن يبذل جهده
الفني في اقناعه بأنه في يقظة ، لسكي يزول
سبب وجوده في المستشفى

وعلى الرغم من خروجه من المستشفى
سليماً معافاً ، وفي أحسن حال ، ما زال كلما رأي
يسألني : « أحقيقة » اني في يقظة أم في حلم ؟

— حياتين ؟ الواحدة حقيقية والآخرى

وهمية ، وأنا مضعض العقل بينهما .

— أنت طلبت حياةً أخرى فأعطيت

— يستحيل أن تكون احداًهما إلا

وهماً أو حاملاً . وقد أصبحت لا أدري أيتهما

الحقيقية ، وأيتهما الوهمية . فكفي ضعفة

للعقل بينهما يا سيدي الملاك ، أرجو ان

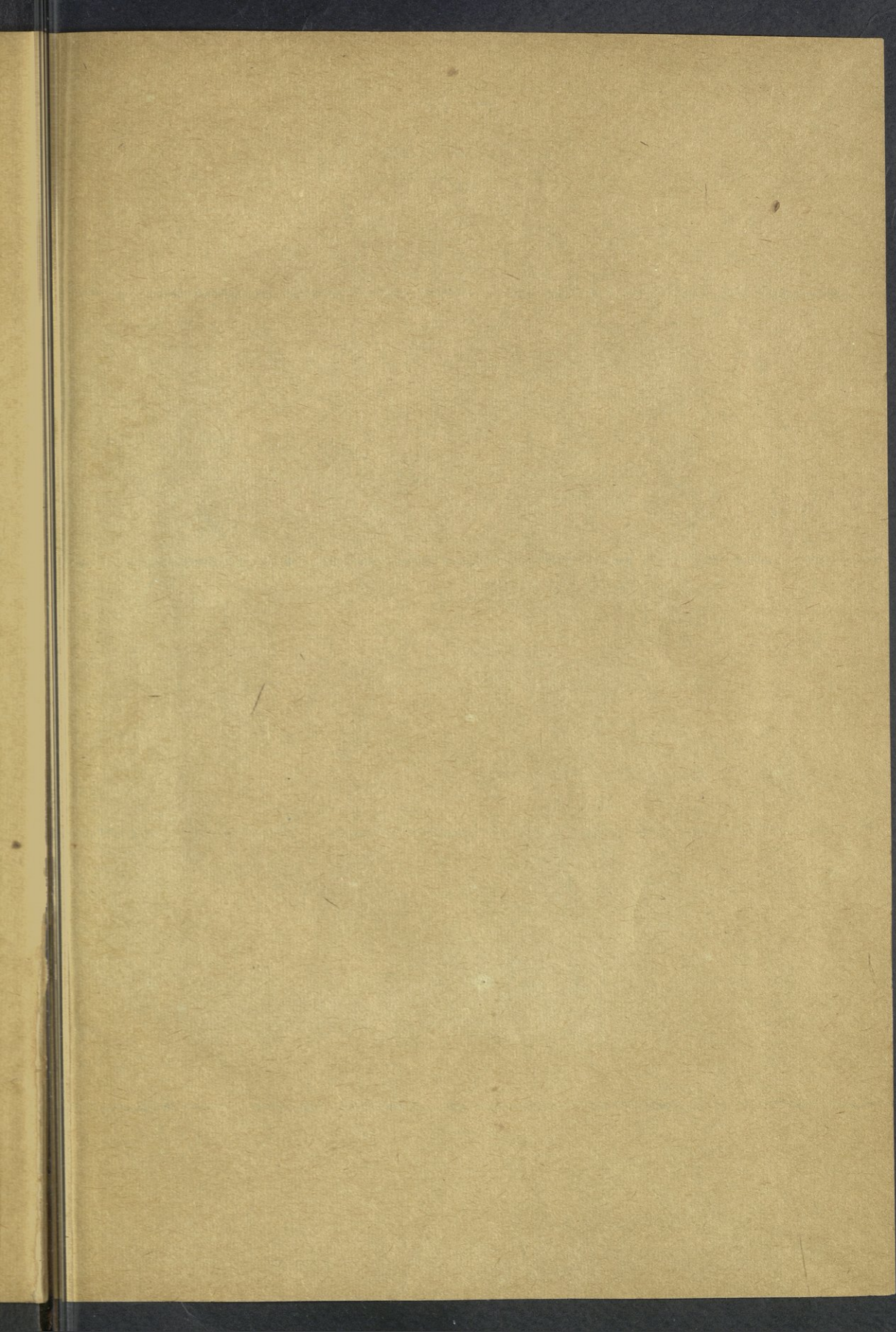
ترشدني الى الحقيقية منهما .

— الحياة التي تستطيعها هي الحقيقية .

— ويلاه ! لا أزال ضائعاً ، بربك اهديني

— أعطيت عقلاً كاملاً . فاهتد . لقد

انتهت مهمتي ، اني مودعك الى الأبد .



للمؤلف

الحقبة الزرقاء
عين بعين
أسرار مصر
العالم الجديد
نبية لبنان
حركات السيدات في الانتخبات، أو أي هو أي
ثورة عواطف
من مرابي الى زغلول
فاتنة الامبراطور
زغلولات مصر
أين الكنز يا شرلوك هولمز (مترجمة)
الامبراطورة ثيودورة (نهرت في هلال يناير
سنة ١٩٤٤)
دولة سيدات في مملكة نساء
بيت الشباب يعود
روايات نشرت في اللطائف المصورة
المنطاد المنتقم
زغلول مصر
زغليل مصر
نقاة آل عثمان
نحت راية مصطفى كمال
نقاة الاناضول وانهمزام اليونانيين
روايات مترجمة نشرت في مسامرات الشعب
حب في ثورة (الاصل لديماس)
عقد الملكة (جزآن) «
الزهرة الحمراء (الاصل للبارونة اورزي)
الحرب الجوية
المقرب (بتصرف)
زوجة بالاسم

مؤلفات علمية

هندسة الكون حسب ناموس النسبية Relativity
فلسفة التفاحة، أو جاذبية نيوتن
Newton's Gravitation
عالم القدرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy
فلسفة الوجود Ontology
علم أدب النفس Ethics
علم الاجتماع (جزآن) Sociology

مؤلفات افسوقية واجتماعية

الاشتراكية
الحب والزواج
ذكرأ وأثنى خلقهم
مناهج الحياة
شعوب أوروبا (مترجمة)
تاريخ أساس السمائع الانكليزية (ترجمة)

روايات الاتحاد العربي

فرعونية العرب عند الترك
جمعية اخوان المهدي
وداعاً أيها الشرق

روايات مختلفة

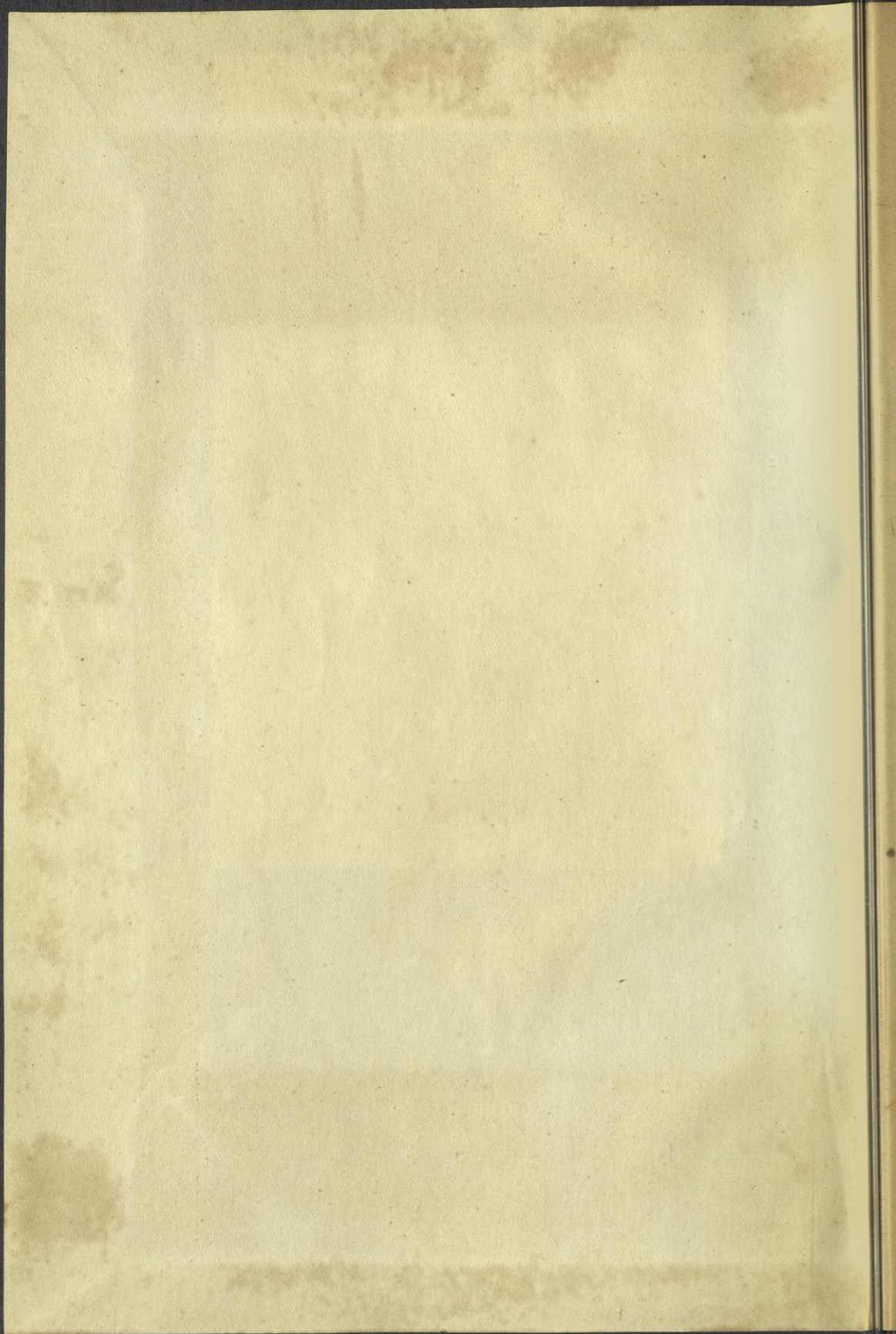
المقدس (ممتازة)
ثورة في جهنم
حواء الجديدة (طبعة ثالثة)
آدم الجديد
المديق المجهول

كتب للمؤلف معدة للطبع

الديمقراطية — سيرها ومصيرها	خالد بن الوليد :	تمثيلية أو رواية
اسحق نيوتن	الحب الذهبي :	» »
المهزلة في رأس الجبل	الكنز القيصري أو دوقه في مصر :	رواية
(مناقشات أخلاقية)	سر الكنز :	رواية

من مؤلفات المؤلف للبيع في ادارة المقتطف

هندسة الكون على سنة النسبية	٤٠
عالم الذرة — الطاقة الذرية	٢٠
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن	١٢
ليت الشباب يعود (أروع رواية)	٢٠
فلسفة الوجود	٢٥
دولة سيدات في مملكة نساء	٢٠



DATE DUE

الحداد، نقولا

ليت الشباب يعود: ذاتيتان في شخص و

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037760

American University of Beirut



General Library

892.78

Hq28181A

c.1